جواهر العلوم والآداب

« النظر فى الكون بهجة الحكماء وعبادة الأذكياء »

تأليف

الشيخ/ طنطاوى جوهرى

من كبار العلماء

جمع وتحقيق

الشيخ/ طه عبد الرءوف سعد

من علماء الأزهر الشريف

الناشر

دار الحرم للتراث

٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة

ت - ٥٩١٦٠٢١

- اسم الكتاب: جواهر العلوم والآداب
- اسم المؤلف: الشيخ/ طنطاوى جوهرى
- جمع وتحقيق: طه عبد الرءوف سعد
- الناشر: دار الحرم للتراث
- العنوان: ٤٥ سوق الكتاب الجديد بالعتبة - القاهرة
- تليفون: ٥٩١٦٠٢١
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

- كمبيوتر: M.K.A السندس لخدمات الكمبيوتر
ت: ٥٨٩٧٥٢٩ - ٠١٢/٢٥٩٢٤٦٧

- رقم الإيداع بدار الكتب: ١٠٨٠٠ /٢٠٠٤
- الترقيم الدولى: 1 - 13 - 6038 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله أدب عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب فيها هدى ونور يستضئ بها من انفسح صدره لنور الإيمان وأعمل عقله ليصير إنسانا كما أراده الله تعالى له فنفع غيره وانتفع هو نفسه.

أحمده جل فى علاه أن اختار لنا أكرم دين دين الإسلام المجيد وخصنا بأفضل رسول محمد بن عبدالله الصادق الوعد الأمين.

اللهم أدم علينا الإيمان والإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله حتى نلقاك ونحن متبعين أوامرك سائرين على منهاجك وسنة رسولك.

اللهم وصل وسلم على رسولك ونبيك الصادق الوعد الأمين خاتم الرسول على الإطلاق وأكرمهم فى معالى الأخلاق وعلى آله ذوى الفضل العلى وأصحابه أكرم الأصحاب.

أما بعد

فإن المكتبة العربية على الرغم من امتلائها بآلاف الكتب فى مختلف العلوم وشتى الفنون إلا أنها فى حاجة وبالذات في هذا الوقت إلى ما كتب فى فن الأدب الذى يصل المنشور منه إلى القليل أو أقل من القليل.

فلا عجب أن نقوم بنشر هذا الكتاب

« جواهر العلوم والآداب »

لشيخ الأدباء وأديب المشايخ العالم العلامة الأستاذ المحقق طنطاوى جوهرى تلك الشخصية الفذة التى اهتمت بالعلوم على اختلاف أنواعها لتثبت من خلالها وجود الخلاق وقدرته على خلق تلك العوالم الفسيحة المنتظمة البديعة تلك العوالم المهيئة لاستقبال خلق الله من بشر وغيره.

وقد صاغ كل ذلك بصيغة أدبية فائقة وبألفاظا عربية رائقة أدب يأخذك إلى عجيب خلق الله فيجتاز بك السموات السبع ومن فيهن ثم ينزل بك إلى بساط الأرض ومن عليها وما عليها .

كتاب لا تكاد تقرأه حتى ترى الله عن قرب فى بديع صنعه ودقة خلقه تراه بقوته بقدرته برحمته بعزه وجلاله بعلمه ورأفته .

إنها حكم تناسب الوضع الإلهى الجليل

فيا أيها الأديب الشادى إلى المعرفة حتى وإن كنت قرأت الكثير فسوف تجد فى هذا الكتاب وكتابه الآخر (**ميزان الجواهر**) ستجد الجديد .

علوما طبيعية وعقلية وشرعية استشهادات من الذكر الحكيم وأحاديث من لدن رءوف رحيم .

كتاب يستيقن به الجاحد وجود الله ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

وإنى أنصحك أيها القارئ الكريم ليس بقراءته فقط بل عليك بإجادة تلك القراءة لتحصل على الإفادة المرجوة وتحصل على جواهر هذا الكتاب ودرره وأذكرك بقول أرسطو :

« ليت شعرى : **أى شىء فات من أدرك الأدب ؟**

وأى شىء أدرك من فاته الأدب ؟

ولا ننسى هذا القول الكريم المأثور : « **تفكر ساعة خير من عبادة سنة** »

اللهم يا عالم السر والنجوى انفع بهذا الكتاب كل من قرأه وأفده الفهم منه وارزقه وإيانا العمل بما فيه إنك نعم المولى ونعم النصير وللدعاء سميع وبالإجابة جدير وصل وسلم يا مولانا على عبدك ورسولك محمد خير من أرسلت واملأ قلوبنا بحب كتابك خير ما أنزلت وارض اللهم عن صحابة رسولك خير من اخترت وسلام على المرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

(الأدب)

بما أن كتابنا هذا يندرج فى وجهة منه تحت تصنيف الأدب فلا بد لنا وأن نعرف بهذا العلم المفيد .

قال الزمخشرى هو من آدَبِ الناس وقد أَدُبَ فلان وتقول الأدب مأدبة ما لأحد فيه مأربة وأدبهم على الأمر جمعهم عليه .

وفى النهاية فى غريب الحديث :

الهمزة والدال والباء أصل واحد تتفرع مسائله وترجع إليه فمن الأدب أن تجمع الناس إلى طعامك وهى المأدَبه والمأدُبة .

ومن هذا القياس الأدب لأنه مجمع على استحسانه، ومنه حديث عبدالله بن مسعود –رضى الله عنه– «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته» .

وتأويله : أنه شبه القرآن الكريم بصنيع صنعه الله تعالى للناس لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه .

والأدب الذى يتأدب به الأديب من الناس سُمى أدبا لأنه يأدب الناس الذين يتعلمون إلى المحامد وينهاهم عن المقابح، ويأدبهم أى يدعوهم .

والأدب ملكة تعصم من كانت فيه عما يشينه، ومن معانى اللفظة أنها تطلق على ما يليق بالشىء أو الشخص فيقال آداب الشخص وآداب القاضى .

والأدب الظرف وحسن التناول .

ويشرح العلامة عبد الرءوف المناوى قول رسول الله ﷺ «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» فيقول :

معنى الأدب هو ما يحصل للنفس من الأخلاق الحسنة والعلوم المكتسبة .

وفى كتاب شرح النوابغ:

هو ما يؤدى بالناس إلى المحامد وكل الآداب متلقيات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه مجمعها ظاهرا وباطنا، ثم قال:

والأدب استعمال ما يحمد قولا وفعلا وأدب البلاد إيدابا ملأها عدلا.

والناس فى الأدب متفاوتون تفاوتا عظيما فمن قرأ العلوم وطاف فى البلاد وعاشر طوائف الناس بعقل حاضر وتنبُّه قائم، وضبط جيد حتى عرف العوائد المختلفة والأهواء المتشعبة وميز الحسن منها وتخلق به، يكون بالضرورة أكثر أدبا ممن قرأ وخالط ولم يطف، وممن قرأ وطاف ولم يعاشر.

هذا عن لفظ الأدب عموما.

أما إذا تكلمنا عن الأدب كعلم أي علم الأدب فنقول:

هنا يعنون بالأدب كل ما عبر عن معنى من معانى الحياة بأسلوب جميل.

فلا بد لعد الشيء أدبا من ركنين.

١- معان تثير العاطفة.

٢- ألفاظ جميلة تؤدى بها هذه المعانى.

فلا بد فى الأدب من صياغة وتعبير جميل.

فالمعنى إذا لم يصغ هذه الصياغة وعبر عنه تعبيرا سخيفا لا يسمى أدبا.

والأدب عادة ينقسم إلى قسمين: شعر ونثر فنى وعلوم الأدب عند المتقدمين تشمل اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعانى والبيان والبديع والعروض والقافية والخط، والإنشاء والمحاضرات والجمع آداب.

وتطلق الآداب حديثا على الأدب بالمعنى الخاص، والتاريخ والجغرافيا وعلوم اللسان عموما والفلسفة.

وفى مقدمته الفائقة (مقدمة ابن خلدون) يعطينا تعريفا لعلم الأدب .

هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة وسجع متساوٍ فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة .

والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه؛ فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه .

وإذا استرسلنا فيما قيل عن الأدب فلن يتحمل هذا الكتاب فى صغر حجمه ذلك الكم الهائل من تعريف وفضائل هذا العلم الجليل، ويكفى من العطر قطرة ومن البستان زهرة ومن البحر لؤلؤة فريدة .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل،،،

(المحقق)

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

المولود ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠م

المتوفى ١٣٥٨ هـ ١٩٤٠م

الشيخ طنطاوى بن جوهرى المصرى فاضل له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة .

ولد فى قرية عوض الله حجازى من قرى الشرقية بمصر وتعلم فى الأزهر مدة ثم فى المدارس الحكومية، وعنى بدراسة الإنكليزية، ومارس التعليم فى بعض المدارس الابتدائية ثم فى مدرسة دار العلوم، وألقى محاضرات فى الجامعة المصرية، وناصر الحركة الوطنية، فوضع كتابا فى « نهضة الأمة وحياتها » نشر تباعا فى جريدة اللواء، وانقطع للتأليف .

وكان الشيخ طنطاوى علما عاليا من أعلام نهضة مصر الحديثة ومرشدا ومعلما من مرشدى الحركة التقدمية فى المعاهد العلمية فهو فيلسوف من مشاهير فلاسفة القرن العشرين ومصلح دينى من المتقدمين المجددين .

لقد أجمع غالبية العلماء على أن الشيخ بطل من أبطال الإسلام وفيلسوف من فلاسفة الشرق .

واختلفوا فى مرتبة الشيخ بين الحكماء هل هو حكيم اجتماع ينظر فى شئون الأمة كما يبدو ذلك فى كتابيه « **نهضة الأمة وحياتها** » وكتابه « **أين الإنسان** » أم حكيم طبيعى لاهوتى يبحث عن الروح وخلودها وحالها بعد خروجها من أسر المادة كما يحكى عن ذلك فى كتابه « جواهر العلوم » والذى نحن بصدده وكتابه « **الأرواح** » .

بدأ الشيخ اتجاهه بالاهتمام بعالم الروح بأن يقترب من الطبيعة وأن يتوافق هو وقوانينها، فكان يخرج إلى الخلاء ليتشبع جسده بالعناصر الطبيعية من شمس وهواء.

ثم رأى أن يقتصر طعامه على النباتات فيتناول أكثر ما يتناوله منها طبيعيا، بل إنه أمضى الثلاثين عاما الأخيرة من حياته فى صيام لا يتخلله إفطار إلا فيما لا بد منه كالأعياد ونحوها.

بذلك رقيت روحه واعتبر رائد الروحية الأول فى مصر، بل والشرق كله.

ولم يخدم بجهاده الروحى الفكرة الروحية فقط، وإنما خدم الدين الإسلامى أيضا إذ اعتنقه الكثيرون من غير المسلمين.

هكذا كان الشيخ علما منفتحا على عدد من الثقافات الواسعة آخذا من كل علم بطرف وثيق من أطرافه فألف عشرات الكتب كان من أشهرها.

١– الجواهر فى تفسير القرآن الكريم نحا فيه نحوا خاصا به فسرد فيه كثيرا من فنون عصره وعلوم طبيعة.

٢– ميزان الجواهر فى عجائب الكون = يصدر مع هذا الكتاب.

٣– جواهر العلوم والآداب «وهو كتابنا هذا».

٤– النظام والإسلام.

٥– التاج المرصع.

٦– الزهرة.

٧– نظام العالم والأمم.

٨– الأرواح.

٩– أين الإنسان؟

١٠- أصل العالم.

١١- جمال العالم.

١٢- الحكمة والحكماء.

١٣- سوانح الجوهرى.

١٤- الفرائد الجوهرية فى الطرق النحوية.

١٥- بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية.

توفى -رحمه الله- بالقاهرة سنة ١٣٥٨هـ- ١٩٤٠م.

لزيادة من المعلومات تفضل بالنظر فى:

١- مرآة العصر ٢ / ٢٢٥.

٢- جريدة البلاغ ٣ من ذى الحجة ١٣٥٨هـ.

٣- جريدة الأهرام ٣ من ذى الحجة ١٣٥٨هـ.

٤- معجم المطبوعات ١٢٤٣.

٥- الأعلام الشرقية ٢ / ١١٦.

٦- مذكرات المؤلف -رحمه الله تعالى-.

٧- جريدة الأخبار موضوع للأستاذة/ ألفت الخشاب ١٦ رمضان ١٤٢٣هـ ٢١ من نوفمبر ٢٠٠٢.

٨- دراسة قيمة عن الشيخ للدكتور عبد العزيز جادو.

بسم الله الرحمن الرحيم

استلفات نظر القراء

هذا الكتـاب أُلف قبل (ميـزان الجـواهر)[١] ولكـنه طبع بعـده وأدخلـت فيـه زيادات نافعـة فـلا يلتبس على حضـرة القـراء التعبيـر تارة بـلفظ الماضى وتارة بـلفظ المضارع فى الإحالة على ميزان الجواهر.

المؤلف

★ ★ ★

(١) كتاب يصدر –إن شاء الله– مع هذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف

الحمد لله الذى أنار الوجود ببهائه . وعم المخلوقات بسوابغ إحسانه وعظائم آلائه . وأفرغها فى قالب الكمال . وألبسها حلل الجمال . والصلاة والسلام على سيدنا محمد السراج الوهاج . وآله وصحبه السالكين خير منهاج .

أما بعد

فإنى علقت منذ نعومة أظفارى بالأفكار الربانية . والعجائب الإلهية . وبدائع الملك والملكوت . وغرائب الأرض والسماء والنبات والحيوان . واختلاف الأشكال والألوان . وجمال صنائع الرحمن، فمهما خلوت بنفسى، أو فرغت من درسى، نصبت فى طلابها ووقفت عند الوجهة ببابها، فكم من فكرة أفلتْ بعد الطلوع، وكم من سانحة ذهبت ولا رجوع، حتى ألهمنى اللطيف الخبير أن أجمع ما حضر وأذر ما غبر وكم لديه من فضل وجود إنه لطيف ودود .

طوراً يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديًّا فعدنانى

فهاك ما سنح لذهنى الفاتر، وما استخلصته لنفسى من الدفاتر لا أتقيد بعلم بل أضرب فى كل علم بسهم فهو روض جميل الأفنان(١) فيه من كل فاكهة زوجان، وجنى جنتيه دان، فطوراً تقرأ فيه علوم النبات والحيوان، وتارة تتأمل فى عجائب الأكوان كالبحار والسحاب والهواء وكواكب السماء وعلومها، وعلوم الغبراء(٢) مستدلاً بآيات قرآنية، وأفكار جوهرية من العلوم العقلية على نسق جميل وأسلوب ما له من مثيل .

وبالجملة فهو تحفة للعقلاء وسلوة للأدباء، وفاكهة النبلاء، والأجلة العلماء . سرور فى الخلوة، وزينة فى الجلوة، وقد استحسن كثير من الأصدقاء وإخواننا

(١) والمفرد فنن الغصن المستقيم من الشجرة .

(٢) يقصد الأرض .

النبهاء أن أضع هاتيك المقاصد فى قالب بديع حسن الترصيع، كمقامة أدبية، ومناظرات جلية، ليكون أشوق للنفس، وأدفع للبؤس، وأجلب للأنس، وأحسن فى الدرس فرمزت (بإبراهيم) للعقل (وبجمال) للبصيرة وجعلت غالب المحاورة بينهما وقد سميته (**جواهر العلوم والآداب**) تبصرة وذكرى لأولى الألباب، وسأتبعه ان شاء الله بكتاب سميته (**ميزان الجواهر**)(١) وهو الذى ضمنته دقائق الأفكار القديمة والحديثة، وهو الذى جمع فأوعى تكميلاً، فجاء تمامًا على الذى أحسن وتفصيلاً، وظنى فى الله عز وجل جميل؛ أن يكون هذا الكتاب ذكرى لقوم يعقلون، وصلة بينى وبين إخوان صفاء عن ظهر غيب لأخيهم يدعون وهم بما خالط قلوبهم من المحبة مخلصون، وقد رتبته على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة:

المقدمة: فى سبب السفر.

الباب الأول: فى عجائب الأرض، وفيه سبعة عشر فصلاً.

الباب الثانى: فى الكلام على العلويات، وفيه أربعة فصول.

الباب الثالث: فى ذكر آيات من القرآن مشتملة على جميع ما تقدم وفيه خمسة فصول.

الخاتمة: فى اجتماع الخليلين.

وقد آن أن نشرع فى المقصود بعون الله الكريم الودود.

---

(١) يظهر –إن شاء الله– مع هذا الكتاب.

المقدمة

«في سفر إبراهيم[1] لطلب فتاة»

اعلم أن شابًّا يسمى إبراهيم نشأ فى قرية من قرى البلاد المصرية بين الفلاحين، وقرأ القرآن فاستشرفت همته العلية ونفسه الزكية إلى معالى الأمور من العلوم والمعارف وأحاسن الآداب واللطائف لما يشاهده من صنائع الرحمن وعجائب النبات والحيوان والإنسان، فكان لا يقر له قرار ولم يكن له قط اصطبار عن ملازمة الأفكار فى عجائب الصنعة وبدائع الخلقة من اختلاف الألوان والصور والأشكال، ولطائف الطبيعة ومحاسنها البديعة، واختلاف المطاعم والملابس، وجمال السماء المزينة بقلائد النجوم، ويتأمل قائلاً ما هذا الجمال الباهر والكمال الظاهر؟!.

وكثيرًا ما كان يخلو بنفسه ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء.

فصار يدعو الله سرًّا وإعلانًا، أن يقيض له من يوقفه على علوم هذه العوالم ويلازم الدعاء والضراعة إلى مبدعها، فأجابه من يجيب المضطر إذا دعاه، ويسر له الأسباب لتحصيل مناه، فوجهه إلى العلماء الأعلام بالجامع الأزهر فقرأ علوم التوحيد والفقه والتفسير والأدب والحديث والمنطق وغير ذلك.

ثم رأى نفسه متشوقة إلى معرفة هذه العوالم فرجع إلى بارئه ودعاه فسهل له قراءة العلوم التى فى المدارس من الحساب والهندسة والهيأة وعلم طبقات الأرض (الجلوجيا) وعلم الجغرافيا والتاريخ وعلم الحيوان والنبات والإنسان والطبيعة والكيميا وغيرها من العلوم.

ثم تاقت نفسه إلى قرينة تكون ذات نفس أبية وهمة علية تميل إلى ما يميل إليه من العلوم الإلهية والعجائب والبدائع فأخذ يجوب البلدان فى كل زمان ومكان

(١) ذكر أنه يرمز للعقل بإبراهيم وللبصيرة بجمال.

مـجـدًا فى ذلك فكان إذا سـأل عن ذوات الخـدور من بلاده المصـرية من قـروية أو حضرية واقترح تلك الأوصاف قيل له قد طلبت رابع المستحيلات[1] فتلك أعز من بيض الأنوق أو الأبلق العقوق، وما بينهن وبين تلك الصفات فى البعد إلا كما بين طنجة والهند وهن أبطأ عنها من قند .

فهـاجـر فى الأرض طلبًـا لبـغيته حتى وصل بلاد الشـام التى بارك فيـهـا رب العالمين وجعلها مقر جُلّ المرسلين وهو لا يألو جهدًا فى التفكر فى القدرة وبدائع الصنعة فكأن الأشجار تناديه والأزهار تناجيه وتحدثه عن جمال باريه، فكان يرى أثر جماله فيها ومحاسن صفاته فى معانيها، وينشد قول الشاعر:

تُسبح ذراتُ الوجود بحمـده ... ويسـجدُ بالتعظيمِ نجمٌ وأشجارُ

ويبكى غمامُ الغيثِ طَوعًا لأمـرِه ... فتضحك -مما يفعل الغيثُ- أزهار

* * *

(١) والمستحيل هو ما لا يمكن حدوثه.

الباب الأول
«فى عجائب الأرض . وفيه سبعة عشر فصلاً»

الفصل الأول[١]
(فى ذكر سبعة أنواع من عجائب النبات)

ولما كان من عادة الله فى خليقته أنه يؤلف بين الروح وأمثالها، وأن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها، جمعته المقادير الإلهية على ذوى مراتب علية وأقدار رفيعة سنية ممن تغذوا بلبان الأدب وارتضعوا ثدى الحِكم فى الأرض المباركة[٢]؛ فاجتمعوا فى مجلس حافل ومشهد جامع وكانوا عشرة كاملة وأخذوا فى نوادر من الفنون والحديث شجون إلى أن ذكروا عجائب النبات وغرائب الحيوان من الطُّرف المليحة والأحاديث الصحيحة.

فقال أحدهم: سمعت ان فى بعض جزائر المحيط الأعظم شجرة تحمل خبزاً يقتات منه أهل تلك الجزيرة ويجنونه ثمانية أشهر فى السنة، وهو يقوم مقام خبزنا الصناعى[٣] وهو غالب طعامهم، جعله لهم البارى قوتًا فضلا منه ونعمة، وذلك الخبز على هيئة كرة زنتها نحو أربعمائة وعشرين درهما، ثم إن ثيابهم من قشر تلك الشجرة وقواربهم من سوقها وموائدهم من أخشابها؛ فقد قامت مقام الحبوب وآلاتها، وأغنت عن زراعة القطن والكتان وغيرهما، فسبحان من خص من شاء بما شاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فقال الثانى: رأيت فى بعض الكتب أن فى جزيرة مداغشقر التى هى بجانب

---

(١) هذا الفصل أغلبه عن الرسالة الحميدية ومسألة شجرة السياح من مجلة الهلال الصادرة من أكثر من مائة عام.

(٢) أرض الشام كما ذكر قريبا.

(٣) إذ غلبت الصنعة على الخبز الذى كان يأكله ونأكله حتى الآن.

أفريقيا شجرة تسمى شجرة السياح على هيئة إسطوانة ومرتفعة ارتفاعًا عظيمًا ولا يزيد ورقها عن أربع وعشرين، وهو عريض كالمراوح، فى أسفل كل ورقة أمر عجيب وهو كأس صغير مستظل بظل تلك الورقة، فيه ماء يبلغ نصف رطل مصرى[١] عذب سائغ شرابه بارد، وتلك الشجرة ليس حولها ماء البتة، وإنما تكون فى الأرض المقفرة فترى السياح إذا أشرفت نفوسهم على الهلاك أنقذهم الله منه بشربهم من ذلك الماء المستظل بالأوراق حيث يثقبون الكأس من أسفله فيشربون الماء، فإن كان الكأس مرتفعًا عن الأيدى طعنوه بحراب بأيديهم وتلقوه بالأوانى فشربوا منه.

ولعمرك كم نجت نفوس من الموت بسبب تلك الشجرة.

وانظر كيف جعل الله عز وجل ذلك الماء بقدر معلوم وقسطاس مستقيم حتى أنجى به ألوفًا من عباده رحمة منه وفضلاً.

وسمعت أن فى بلاد الهند شجرة تخرج لبنًا أخثر[٢] من حليب البقر.

وفى بلاد أمريكا شجرة أخرى لها ثمر طعمه كطعم شراب الليمون ويخرج من ساقها لبن أبيض أشهى وأحلى من حليب المواشى، عليه مدار قوام بعض الجهات فى برازيل.

قال الثالث: قد علمت أن فى الهند وأفريقيا شجرة تخرج ثمرًا لبه كالقشدة قوامًا وطعما ويبقى شهورًا فى البلاد الحارة ولا يتغير طعمه ولا لونه، فقد سابق النبات فى ذلك الحيوان لمنافع الإنسان

وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

(١) الكيلو الآن يبلغ رطلين وربعا من الأرطال التى كان يوزن بها فى أربعينيات القرن الماضى.

(٢) قال فى الصحاح أخثرت الزبد تركته خاثراً وذلك اذا لم تذبه وخثر اللبن ثار ثخينا.

فقال الرابع: قد سمعت أن شجرة الجوز الهندى الذى ترونه يباع بين ظهرانينا يتخذ من جوزه قبل نضجه شراب وبعد نضجه ما يحكى الحليب، وتطبخ أوراقها كالخضر، ويتخذ من عصارة أزهارها سكر، ومن أخشابها وقشر جوزها أوان وصحون وقصاع ويتخذون لهم بيوتًا من أخشابها وينسجون من أوراقها حُصْرًا، ولها ليف ينسجون منه الثياب والمناخل والقلوع والحبال، ويتخذون من دهن جوزها زيتًا، ومن نشارة أخشابها حبرًا للكتابة، ومن أوراقها قراطيس لها، فمنها شرابهم ومطبوخهم وحلواهم وأوانيهم وبيوتهم وفرشهم وثيابهم وأحبال مواشيهم ودهنهم وخبزهم وورقهم ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[١] ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** ﴾[٢] أى دلائل دالة على قدرته وعظمته ووحدانيته.

فقال الخامس: أيها السادة ما رأينا كالليلة بهجة وأنسًا لقد أذكرتمونا بعجائب الرحمن ولطائف الأكوان، وها أنا أذكر ما خطر بالخاطر، قد قرأت فى بعض الكتب أن من النبات ما أصوله فى الهواء لا فى التراب فيتعلق على غيره ويمتص غذاءه من الهواء مستغنيًا عن الأرض وأنهارها، وفى أزهاره العجب العجاب فقد صور بعضها الرحمن على صورة الإنسان، وبعضها كأنه النحل أو الفراش، فلو رأيته لظننت أنه نحل يجنى عسل الأزهار إذا حركه الهواء، كما أن بعض أزهار النباتات الأرضية على صورة طيور صفر برأس وعينين ومنقار وعنق وصدر وجناحين، منتشرين بعض الانتشار، منتصب القامة كما ينتصب الديك، وعند أسفل بطنه نحلة بلون سنجابى[٣] واضعة فمها ببطنه كأنها تمتص منه شيئًا، وهى ذات رأس وعينين وظهر منقوش وجناحين ممتدين من أصل فخذى الطير، وكل هذه الأعضاء واضحة بينة لأنها تقارب الأعضاء الحيوانية مقاربة، وتسمى

---

(١) الآية ١٤ من سورة «المؤمنون».

(٢) الآية ٢٠ من سورة «الذاريات».

(٣) السنجابى هو اللون الأزرق الرمادى نسبة إلى السنجاب.

زهرة الطير أو زهرة النحلة فى برية بيروت منظر يستوقف الطرف ويدهش العقل ويحار فيه الأريب فسبحانك اللهم دللتنا على حكمتك بإتقان صنعتك وعلى جمالك بحسن تصويرك وعلى قدرتك بتنويع الأشكال وتشكيل الأنواع:

وهل غبتَ عن شيءٍ فينكر منكرٌ وجودَك أم لم تبد منك الشواهدُ

وكلُّ وجودٍ عن وجودك كائنٌ فواجد أصناف الورى لك واجدُ

سرَتْ منك فيها وحدةٌ لو منعتَها لأصبحت الأشياءُ وهى بوائدُ

وكم لك فى خلقِ الورَى من دلائل يَراها الفتى فى نفسه ويشاهدُ

كفى مُكذبًا للجاحدين نفوسُهم تُخاصمهم إن أنكروا وتعاندُ

فقال السادس: ومن العجائب الربانية النبات المسمى بعابد الشمس، وهو نبات بديع الصنع عجيب الإحكام، جعله الله عز وجل عاشقًا للشمس يستقبلها إذا طلعت، ولا يزال ميله إليها واتجاهه نحوها لسر لا يعلمه إلا مدبر الكائنات ورابط السفليات بالعلويات، ومدبر الحيوان والنبات، وهذا النبات زهرته مستديرة ذات دوائر بديعة محكمة الوضع جميلة الهيأة ظريفة الشكل، تحيط بها أهداب كخيوط الحرير وفى وسط نوع منه شيء كعقرب الساعة، فكلما ارتفعت فى وسط السماء ارتفع معها، فإذا استوت فى وسطها اتجه إليها على هيئة سطحية الوضع فإذا مالت مال معها إلى أن تغرب فسبحان المبدع الحكيم.

* * *

الفصل الثانى

(فى ذكر المغناطيس والبوصلة واستطراد فى تفسير)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ ﴾الآية(١)

قال السابع: هذه العجيبة أذكرتنى عجائب المغناطيس وما فيه من الخاصية فكما أن عابد الشمس يستقبلها كذلك نرى الإبرة الممغطسة يتجه أحد طرفيها دائما إلى النجمة القطبية، وقد تميل عنها بعض الميل كما هو مذكور فى محله، وإليكم إيضاح الكلام عليها بعض الإيضاح.

اعلموا إخوانى أن فى الكون مادة تسمى حجر المغناطيس، أو المغناطيس الطبيعى، من خواصه جذب الحديد فإذا وضعت قطعة من الحديد بجانب قطعة منه فإنه يجذبها إليه وهى تجذب قطعة أخرى والثانية تجذب ما يليها وهكذا، فالقطعة الواحدة من المغناطيس تجذب قطعًا كثيرة متتالية من الحديد فترى كأنها سلسلة متصلة ويحملها فى الهواء بشرط أن لا يكون ثقلها أكثر من قوة جذبه، وكل من الحديد الصلب واللين يكتسب هذه الخاصية أى يجذب الحديد وذلك بدلكه بحجر المغناطيس أو بمغناطيس صناعى على كيفيات مخصوصة معروفة عند أهل هذه الصناعة.

ولكن تلك الخاصية لا تدوم فى الحديد اللين وتدوم فى الصلب ويسمى ذلك بالمغناطيس الصناعى.

ومن عجيب أمر المغناطيس أنه إذا قرب قضيب منه إلى برادة الحديد اضطربت إليه وأخذت تثب إليه كما يثب الحيوان، ثم تصطف صفوفًا منتظمة حوله على هيئة أشكال بيضاوية عجيبة بعضها وراء بعض بمقادير هندسية بديعة،

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة «البقرة».

فما أعجب هذا النظام السارى فى العالم كله حتى سرى إلى الجماد الذى لا يعقل وما هذا العشق الذى يدهش الألباب ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾(١).

ولعمرى إن عشق الحديد للمغناطيس لمما يستغرب اللهم عشق الحديد والقلوب غلف وصفا المعدن والنفوس غير صافية فإليك(٢) نهرع أن تصفى نفسونا من الكدر هذا(٣).

ومنه الإبرة الموضوعة فى البوصلة المعتادة التى تشبه ساعات الجيب ولها طرفان أحدهما يتجه دائمًا جهة الشمال والآخر جهة الجنوب، والذى فى جهة الجنوب يسمى القطب الجنوبى والذى فى جهة الشمال يسمى القطب الشمالى، وتأخذ اتجاهًا يسمى بالخط الجانبى المغناطيسى، وهو يميل شرقًا أو غربًا ميلا قليلا عن خط الزوال، ويختلف ذلك الميل باختلاف الزمان والقرون والبلاد، ومن عجيب هذا الإبرة أنها قد تتحرك وتستمر فى اضطراب عدة ساعات ويحصل ذلك بكثرة لا سيما فى أوقات ظهور الفجر الشمالى الذى هو عبارة عن نور عظيم يظهر فى الشمال ليلا، يراه سكان الأقطار الشمالية كسكان أسوج ونروج(٤) الذين يكثر عندهم الثلج حتى يكسو وجه الأرض فيبدو عليها سناء ورونق وحسن لإشراق نوره على بياض الثلج فيظنونه فجرًا ساطعًا إذا هم فى الليل؛ فياليت شعرى ما المناسبة بين ذلك الضوء وتلك الإبرة حتى تضطرب إليه وتكثر حركاتها وأى علاقة بين طرفيها وبين القطب الشمالى والجنوبى، وما هذا الميل الذى يشاهد فيها عنهما، ويا سبحان الله كأنه عز وجل لما جعل النجوم لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر،

(١) الآية ١٠٥ من سورة « يوسف ».

(٢) إلى الله تعالى.

(٣) واقرأ الآية ٧٤ من سورة البقرة ﴿ **ثم قست قلوبكم** ﴾ وراجع تفسيرها فى كتابى (التفسير المبسط للقرآن المعظم).

(٣) يبدو أنه يقصد بلاد السويد والنرويج.

كما قال عز من قائل ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١] وقال فى آية أخرى ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[٢] وكانت النجمة القطبية لا تزول عن محلها حتى سميت مسمار الفلك، فكان إليها اتجاه نظر الملاحين فى أسفارهم وهى لا محالة قد تحجب عنهم بسحاب أو ضوء نهار كذلك جعل تلك الإبرة الممغطسة متجهة إلى تلك النجمة أو تميل عنها قليلاً بقوانين عرفها أهل تلك الصناعة لتنوب عنها فى أداء وظيفتها فى ظلمات البحر عند الحاجة إلى ذلك، فسارت السفن شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا تتردد فى أنحاء البسيطة وتنقل أنواع البضائع وتسهل التجارة[٣] فهذه الخاصية أول رافع لشأن المدنية الحاضرة، ولولاها لم تسهل المواصلات بين الأمم، ولم يعلُ شأنها؛ فقد كانت السفن قديمًا لا تتجاوز شواطئ البحار[٤].

فانظروا أيها العقلاء كيف جعلت هذه البوصلة لتعرف بها الأمكنة المختلفة وتقاس بها البلاد فى البر والبحر والظلمة والنور، كما جعلت الساعات المعروفة لتقاس بها الأزمنة ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥].

ويا سبحان الله كيف يقيس الإنسان الزمان والمكان بآلتين صغيرتين فى يده، حتى كأن السموات والأرض اجتمعت فى قبضته ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾[٦].

فهذه من الآيات الدالة على حكمته تعالى وقدرته قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ

---

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنعام. (٢) الآية ١٦ من سورة النحل.

(٣) وكذلك هى فى الطائرات فوق آلات أخرى اخترعها العقل البشرى الذى خلقه الله تعالى.

(٤) قريبا من سواحل المدن خوفا من أن تضل سبيلها.

(٥) الآية ٧ من سورة «النحل». (٦) الآية ٦٦ من سورة «الحج».

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١)

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية ثمانية أنواع من عجائب مخلوقاته كل نوع منها تحته عجائب لا تنحصر وآيات واضحات دالة على قدرته وكماله ووحدانيته، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم:

(الأول) : خلق السموات والأرض فكم فيها من حكم وعجائب ومصالح يفنى الزمان ولا يمكن حصرها.

(الثانى) : اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بحساب منتظم لا يعتريه خلل ولا يشوبه تغيير.

(الثالث والرابع) : السفن الجاريات فى البحار، تتردد من قطر إلى قطر، ومن قارة إلى قارة بواسطة تلك الإبرة(٢) التى ذكرناها وبهُدى النجوم فى السماء. فبهذه الإبرة ارتفع شأن هذا العصر وتبادل الناس المنافع وأكلوا فواكه الشتاء صيفًا وفواكه الصيف شتاء كما هو مشاهد لسرعة النقل من البلاد الحارة إلى الباردة وبالعكس، مع أن ذلك كان فى الأعصر الغابرة لا يقع إلا كرامة لولى(٣) أو معجزة لنبى فعمم ربك رحمته حتى عمت هذه النعمة الناس بتلك الإبرة الصغيرة فما أعجب ما صنع!

ولقد أخذتنى الحيرة والبهر والاندهاش عن أن أعبر عما اختلج فى صدرى من تلك الحكم التى أودعها فيها، بل هى التى بها انتشر العلم فى جميع أنحاء المسكونة(٤) لتسهيلها انتقال الناس من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم، ثم أعان

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة « البقرة ».

(٢) الإبرة المغناطيسية وغيرها من آلات.

(٣) كما حدث للسيدة مريم أم المسيح عليهما السلام واقرأ قوله تعالى ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . . .** ﴾ الخ الآية ٣٧ من سورة آل عمران.

(٤) أى الأرض المسكونة حذف الموصوف واكتفى بالصفة.

على ذلك بخار الماء حتى سهل سير السفن في أى وقت من ليل أو نهار هدأ الريح أو تحـــرك ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾[١].

(**والخامس**) : المطر الذى ينزل من السماء على الأرض فينبت الزرع ويحيا به الحيوان والإنسان، مقدراً بقدر معلوم، وعلى قدر الحاجة.

(**السادس**) : أنه بث أى فرق فى الأرض الدواب وهى كل ما دب على وجه الأرض من جميع الحيوان، وكيف اختلفت الصور والأشكال والألوان والمقادير والطبائع، والأصل فى كل جنس من أجناس الحيوان ذكر وأنثى فقط.

(**السابع**) : تصريف الرياح فى مهابها جنوباً وشمالاً وقبولا ودبورا.

(**الثامن**) : السحاب المسخر بين السماء والأرض، أى الغيم المذلل فإنه أمر من أعجب العجائب التى يحار العقل فيها.

فما هذا الإحكام والإتقان الذى أمسك به فى الجوّ ثم نزل قطرات متتاليات، ففيما تقدم دلائل لقوم يعقلون أى ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم، فيعلمون حكمته تعالى، وعظمته وتدبيره ورحمته.

ويناسب هذا ما رأيت فى الإحياء[٢] أن عطاء قال انطلقت يومًا أنا وعُبَيْد ابن عُمَيْر إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا، قال : قال رسول الله ﷺ « زُرَ غبًّا[٣] تَزْدَدْ حُبًّا » قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله ﷺ قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبًا أتانى فى ليلتى حتى مس جلُده جلدى ثم قال ذرينى أتعبد لربى عزّ وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها؛ ثم قام يصلى، فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بل

(١) الآية ٧٠ من سورة « الإسراء ».

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

(٣) مرة بعد مرة وليس متتابعة.

الأرض، ثم اطضجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذن لصلاة الصبح، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال، ويحك يا بلال وما يمنعنى ان أبكى وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(١) ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، فقيل للأوزاعى ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن.

وإنما ذكرت هذا لكم يا قوم لتعودوا أنفسكم التفكر فى جمال الصنعة الإلهية.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول ومن حكم تلك الإبرة أنها تُعرف بها القبلة أيضًا كما هو مشاهد، فقد استبان أن شأنها عظيم فى الأمور الدينية والدنيوية.

فقال بعض الحاضرين وأين يوجد حجر المغناطيس؟ فقال هو منتشر فى الكون إلا أنه يكثر فى بلاد السويد والنرويج فى الشمال من أوروبا.

وذكر الأقدمون أنه يفقد هذه الخاصية، إذا أصابه رائحة الثوم أو حصلت زلزلة، فإذا غسل بخل فى الحالة الأولى أو سكنت الزلزلة فى الحالة الثانية رجعت خاصية جذب الحديد إليه، فإن صح ما قالوا، كان أغرب وأعجب فياقوم لماذا كانت رائحة الثوم تضاده ولِمَ توقفه الزلزلة وما المقاربة بينه وبين الخل؟

وبالجملة فأمر المغناطيس قد أعجز العلماء قديمًا وحديثًا عن أن يقفوا على سره، وليس لهم فى ذلك تعليل يشفى الغليل كالكهرباء والضوء والروح وغيرها.

قال مؤلف هذا الكتاب وسنشبع الكلام على هذا وأمثاله إن شاء الله تعالى فى كتابنا «ميزان الجواهر»(٢) مما لم تقف عليه فى كتاب.

---

(١) الآية ١٩٠ من سورة «آل عمران».

(٢) اطلبه مع هذا الكتاب فهو كتاب من أعجب الكتب.

الفصل الثالث

(فى حكمة الله عز وجل فى النبات الذى يشارك الحيوان)

(فى الإحساس ويذكر فيه القيطس[١])

(فقال الشامن): مما سمعنا من عجائب البلدان وغرائبها أن بعض النبات يشارك الحيون نوع مشاركه وهو ثلاثة انواع:

فالأول: نوع يقال له السنط الحساس، وسمى حساسًا لأنه إذا لمسه إنسان أو حركه انضمت أوراقه حين إحساسها به وتشنجت، فهى كإنسان يستحى من الملامسة.

والثانى: نوع ينبت على غيره من النبات فيتغذى من عصارته كما يتغذى حيوان من جسم حيوان آخر، فهو على النبات الآخر كالبرغوث فى جسم الإنسان يمتص من دمه ويتغذى من جسمه.

الثالث: نوع يتغذى بالحيوان وذلك أن الله جلت حكمته خلق على أوراقه مادة يحلو مذاقها عند الذباب فمن جهله وشراهيته يسقط عليها، فمتى أحست به تلك الأوراق انضمت عليه وافترسته وامتصته وشربت ما فيه من الرطوبة وتركته ميتًا ورمت بقشره.

فسبحانك اللهم يا واسع يا حكيم.

فيا قوم كيف كانت تلك المادة مناسبة للذباب وقد جُعلت كشبكة له وألقى عليه الجهل بها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٢] فقد رزق النبات من الحيوان كأنه يأخذ بثأر الأول من الثانى، وسبحانك اللهم كل هذه العوالم تطلب صيداً لكن اختلفت شباكها، كما نصبت العنكبوت منسوجها لصيد الذباب

---

(١) القيطس النفاخ نوع من الحيتان العظيمة.

(٢) الآية ٥٨ من سورة «الذاريات».

والبعوض، فتأملوا يا إخوانى لما كان هذا النبات عديم القوة على اقتناص شوارد الذباب الذى له قدرة على سرعة الطيران وكان لا بد له منه، جعل سبب صيده حاضراً عنده لم يكلفه أدنى مشقة فى تحصيله لعدم قدرته على شيء، إذ لا يكلف العاجز، بخلاف العنكبوت مثلاً فإنه لما احتاج لصيد ذلك الحيوان نفسه وكان له أى العنكبوت نوع قدرة جعل شبك صيده تلك الخيوط التى يسهل عليه نصبها بترتيب بعجز مهرة المهندسين حيث يحكم السدى واللحمة[١] بمقياس مخصوص ونظام عجيب، وتلك الخيوط هى عبارة عن لعابه حين يظهر للشمس فيقتنص الذباب ويقع حين ذاك فى الشرك، فسبحان الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وهكذا إذا نظرنا لجميع الحيوان والنبات نرى ترتيبًا عجيبًا وحكما باهرة تُعجز أحكم الحكماء وأعلم العلماء.

ومما يقرب من هذا أن فى الأقطار الشمالية حيتانًا عظيمة تسمى القيطس النفاخ وهو حيوان عظيم الخلقة ذو جسم جسيم ومنظر عظيم يبلغ طوله فى النهاية ثلاثين مترًا، ورأسه ثلث جسمه مملوءة زيتًا، يبلغ نحو مائة برميل، وفكه السفلى خال من الأسنان، والعلوى ذو صفائح رقيقة حادة فإذا أراد أن يأكل فتح فاه كالقنطرة ودخل الماء بأسماكه فيه فهو فريسته وغذاؤه، ثم يخرج الماء بواسطة حفرة أنفية موضوعة فى أعلى الرأس كأنها أنبوبة يخرج منها الماء عند إطباق فمه عليه كنافورة يرتفع ماؤها ثم يقع كمطر رقيق، ويبقى السمك فيبتلعه ولا يتغذى إلا به، ثم إن زيته متى برد يتجمد ويسمى مَنَّ القيطس الذى يستعمل منه الشمع الشفاف.

فانظروا كيف خص الله عزّ وجل البحر الشمالى بهذا الحيوان، فإن سكان تلك الجهات يحتاجون إلى ما يقاوم البرد الذى يكثر عندهم فخلق الله عز وجل

---

(١) السدى الخيوط الطولية واللحمة الخيوط العرضية فى القماش.

لهم هذا السمك فى بحرهم وأكثر فيه من الزيت ليشربوه فيحدث حرارة ترد هجمات جيوش البرد(١) ويتغذون بلحمه ﴿ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴾(٢)﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾(٣).

وانظروا يا قوم كيف اختصت تلك الأقطار به ولمَ لمْ يخلق فى بحارنا ولا أخالكم تقولون إلا أنه لا احتياج له إلا فى تلك الأصقاع كما أنه عز وجل خلق فى أرضهم الدب وأكثر منه فيلبس أهل تلك البلاد جلده الغليظ وقاية من غوائل البرد أيضًا قال تعالى ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾(٤) وقال تعالى أيضًا ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾(٥) فهو أعلم بمصالح خلقه، الحكيم فى صنعه، المدبر الذى أحسن كلَّ شيء خلقه ثم هدى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾(٦).

ومن عجيب أمر هذا الحيوان أنه لا يتنفس فى الماء كالأسماك بل يرفع رأسه كل عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة مرة واحدة ويتنفس من الهواء، وقد كان القدماء من أجل ذلك يسمونه بنات البحر، وبنوا عليه حكاياتهم الطويلة من وجود أسماك كالآدميين، وإن كنا لا نجزم بكذبه، ولكن هذا ما وصل إلينا، وإنما قلنا لا نجزم بكذبه لأن عدم العثور على الشيء لا يدل على عدمه فى نفسه، وهذه قضية عقلية غلط فيها علماء أوروبا فى العصر الحاضر إلا المحققين منهم، فكثيراً ما نسمع من الشبان الشرقيين الذين تلقفوا كلمات من علم، توجيه سهام اللوم والتنديد على

---

(١) وله منافع أخرى دوائية تقى الجسم من أخطر الأمراض.

(٢) الآية ١٧ من سورة « المؤمنون ».

(٣) الآية ٩٢ من سورة « يونس ».

(٤) الآية ٢١ من سورة « الحجر ».

(٥) الآية ٦٨ من سورة « القصص ».

(٦) الآية ٦٠ من سورة « يونس ».

من زاد على تلك الكلمات لإحسانهم الظن بأولئك القوم واعتقادهم انهم أوصلوهم إلى أسمى درجات العلم، حتى إن أحد الأطباء من المصريين قال لى يوما : أنا أنكر علم الفلك إذ لا أصدق إلا ما أشاهده[١] فعجبت كل العجب وأخذت أقيم له الحجج بالتى هى أحسن حتى قنع، ثم رأيت له بعض شبه فى آيات قرآنية لم يحط بها علماً، فما زلت به حتى عرف الحقيقة.

فانظر كيف أنكر هذا علماً برأسه.

أما علماء الإسلام فهم معتدلو المشارب فلقد رأيت فى كتب تقويم البلدان (الجغرافيا) حين ذكروا الأقاليم ونهاية الأرض المعمورة أنهم قالوا وليس وراء هذه البلاد غيرها إذ لو كان هناك أناس لأتوا إلينا أو وصلنا إليهم مع تداول السنين وكثرة الأسفار، وهذا دليل يفيدنا الظن فقط إذ يجوز أن يكون هناك قوم حال بيننا وبينهم بحار أو جبال، إذ عدم عثورنا عليهم لا يقتضى عدمهم فى أنفسهم، هذا معنى ما قالوه، وبعد ذلك بأزمان ظهر كرستوف كلمب واكتشف أمريكا من نحو أربعة قرون[٢] بإعانة الملكة أزابلا وزوجها الملك فرديناند حاكمى إسبانيا فظهر بذلك وجود أناس آخرين[٣]

ولنرجع إلى ما نحن فيه فنقول : وهذا الحيوان فى غاية القوة حتى إنهم إذا أرادوا اصطياده اجتمع كثير من السفن فى البحر فإذا رفع رأسه من الماء ليستنشق الهواء رموه بخطاطيف فى أطراف الحبال العظيمة فمتى نشبت به تلك الخطاطيف نزل بها فى قاع البحر بحركة عنيفة جداً تحدث حرارة شديدة على بكرات وضعت عليها الأحبال بالسفن، ولذلك تصب حنفيات عليها عند تلك الحركة خوفاً من احتراقها من تلك الحرارة الناشئة عن الحركة، وقد تستعاض البكرات الخشب بمثلها من الحديد والأحبال بسلاسل وبذلك لا يحتاج لصب المياه على البكر والسلاسل،

(١) وهل شاهد هذا العاقل عقله وكيف يعمل سبحان الخالق القادر.

(٢) هذا فى عصر المؤلف والذى مضى عليه أكثر من مائة عام.

(٣) وهم زنوج أمريكا سكانها الأصليون.

وهؤلاء الصيادون متى اصطادوا واحداً منها أغناهم، ولكن يبقون على خطر عظيم فى البحر من شر أقارب ذلك الحوت اللائى يتربصن بهم الإيقاع والفتك فى كل آن لقوتها وشدة بطشها فهذا الحيوان من عجائب صنع اللطيف الخبير.

* * *

الفصل الرابع

(فى ذكر مسائل متفرقة فى النبات)

(وفيه النبات الذى يتحرك فى الدقيقة ستين مرة)

(فقال التاسع) : إن فى صغير النبات وكبيره وعظيمه وحقيره لآيات لأولى الأبصار ودلائل لأولى الأفكار وتبصرة للعاقلين على قدرته تعالى عز جلالاً وجل كمالاً.

فمما خلق ربكم شجرة ساقها عظيم جداً فى إحدى جزائر كناريا فى المحيط الأتلانتكى (بحر الظلمات فى غربى أفريقيا) فقد رأوا هناك شجرة عظيمة لو وقف حول ساقها عشرة رجال كل منهم تتلاقى أطراف أصابعه بأطراف أصابع الآخر مع مدهم أيديهم لم يبلغوا نهاية محيطها، وقد قيل إن هذا النبات بطىء جداً حتى قيل إن هذه الشجرة كانت تنمو قبل أبينا آدم بقرون كثيرة وأين هذه من النباتات التى لا تشاهد بالعين المجردة، وإنما تظهر بالمنظار المعظم (المكرسكوب) فإن الطحلب الذى يعلو وجه الماء والعفونة التى تلتصق بالجدران وغيرها، إذا نُظرت بالمكرسكوب رؤيت كأنها بساتين مزهرة مثمرة تسر الناظرين وتبهر المتفكرين، أو غابات كثيفات، أو مروج واسعات نضرات، ثم تنتشر بذورها فى الهواء مع جملة الهباء تحل وترتحل فى جو السماء والله حفيظ لها، ومتى وافقها الحال استفرخت ونمت وأزهرت.

ثم هذا البذر لا تراه العين المجردة إلا كالغبار الأخضر، فانظروا هذا العظم مع هذا الصغر، وما هذا التباين العظيم والفرق الجسيم.

وكان إبراهيم المصرى(١) تلوح على محياه فى ذلك المجلس بوارق النور ولوامع الإشراق لملاءمة تلك النوادر الطبيعية ما فى فؤاده وموافقتها لغريزته، فكان كلما سمع نادرة ازداد وجهه إشراقًا وبهجة وضياء فقام بينهم خطيبًا وقال:

يا معشر الرفاق لقد آثرتمونا بالإيناس والبشر والإحسان والفضل والمعروف، ومنحتمونا فوائدكم وأنلتمونا عوائدكم، فقد عمنى السرور وشملنى الحبور، بحسن أحاديثكم ولطف شمائلكم، وما اقتبست من أنواركم فتشبهت بكم وقمت بينكم خطيبًا شاكرًا لصنيعكم، ملتمسًا أن تأذنوا لى أن ألقى على مسامعكم ما اطلعت عليه من تلك العجائب.

وذلك أن فى بلاد الهند على نهر الكنج نباتًا تتحرك أوراقه كل دقيقة ستين مرة فمن ذا الذى يشاهد هذا أو يسمع به ولا يأخذه العجب فى ذلك الإبداع والإحكام والإتقان، فهى ساعية لا يعتورها خلل ولا يشوبها ملل، تتحرك ليلاً ونهاراً صباحًا ومساءً تحرَّك الريح أم سكن، قد شهدت بأن فاعلها قادر مختار لا يحكم عليه ناموس ولا تدخل قدرته تحت تحديد، فانظروا ماذا فى السموات والأرض، وما خلق الله من شىء فإن آجالنا قصيرة ومدتها حقيرة:

شرِّدْ النومَ عن عيونك وانظرْ حكمةً توقظُ النفوسَ النيامَا
فحرامٌ على امرئٍ لم يشاهدْ حكمةَ اللّه أن يذوقَ المنامَا

ومن العجائب نبات يتحرك بنفسه حركات يرسم بها فى الهواء مخاريط هندسية، وورقته مؤلفة من ثلاث وريقات أكبرها العليا فى الوسط، والصغريان تحتها على الجانبين، وهما تتحركان مدة حياتهما ليلاً ونهارًا تحرك الريح أم سكن

(١) يرمز للعقل بإبراهيم ويقصد من جمال البصيرة.

في البرد والحر والصحو والمطر والشمس والظل والظمأ والرى ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾(١).

ومنه نوع تتحرك ورقته الوسطى صباحًا ومساءً فقط كأنها دلالة على إقبال النهار وإدباره، بخلاف الجانبتين فإن إحداهما ترتفع والأخرى تنخفض طول النهار، هذا ولما رأى مشركو الهند تلك الساعة النباتية استعظموا هذه الحكمة وعظموا هذا النبات واعتقدوا أن فيه قوة إلهية وما هو إلا شاهد بانفراد خالقه بالربوبية وإحكام الصنعة:

وفى كلِّ معبودٍ سواك دلائلُ   من الصُنْعِ تبدى أنه لك عابدُ

وكأنه عز وجل جعله نموذجًا لتقدير الزمن حيث جعل حركة كل ورقة فى مقابلة ثانية ومن الثوانى الستين تتكون الدقائق ومن الدقائق تحصل الساعات ومنها الأيام ثم الشهور ثم السنون ثم القرون والدهور، ولعل أول مقدر للزمن كان ممن رأى هذا النبات.

واعلموا يا إخوانى أن عالم النبات اشتمل على العجائب والغرائب وحير الألباب بما أودع فيه من النظام المحكم والأسرار والحكم، فإن فى اختلاف أصنافه وأشكاله وأوراقه وألوانه وأزهاره وطعومه وروائحه وكبره وصغره ومناظره ومنافعه ومضاره وجماله وبهائه وحسنه دلائل قاطعة وبراهين ساطعة على عظمة ذلك الخالق وقدرته وعلمه وإرادته وإبداعه وإحكامه.

اللهم اهدنا بهدايتك ونور بصائرنا بعنايتك وأرشدنا إلى أقوم طريق.

فانظروا إلى اللون وحده كالخضرة العامة فى النبات، فإنها نوع واحد ولو قارنا بين أصناف الألوان فى أنواع النبات لم نجد لونًا يشبه الآخر مع أن النبات

(١) الآية ١٤ من سورة «المؤمنون».

الذى علم الآن ينوف عن مائتى ألف نوع، وكل منها له لون مخصوص من نوع الخضرة .

قال مؤلف هذا الكتاب وقد أشبعنا الكلام على الألوان واختلافها وحقيقتها على حسب ما ذكره الأقدمون وعلماء العصر الحاضر بأجلى بيان فى كتابنا المقالات الجوهرية .

* * *

الفصل الخامس

(محاورات بين خاطبين ومخطوبات)

وكان بالمجلس شيخ من ذوى اليسار وكبار التجار، ذو منظر وسيم تلوح عليه آثار النعمة وإمارات الهيبة ودلائل الكمال، وقد جلس فى ناحية عنهم فقال : أيها الشاب الذكى، والعالم اللوذعى أرى لغتك مصرية .

فقال نعم : أنا مصرى فقال وما جاء بك هنا وما سبب هذا السفر فأخبره بحقيقة حاله ومنتهى آماله وأنه يبحث عن ذات جمال باطنى وعلم وأدب، فتاة قد اتخذت من كلٍّ فن طرفًا، واغترفت من كل نوع من بحور الأدب بيدها غرفًا، فقال همة عالية ونفس شريفة .

كلٌّ له غرضٌ يسعى ليدركَه والحُرُّ يجعل إدراكَ العُلا غرَضَا

قد أذكرتنى أيها الشاب ما قرأته فى كتاب المواهب الفتحية لأستاذنا العلامة الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول اللغة العربية بدياركم المصرية، أن امرَأ القيس آلى على نفسه ان لا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية واثنتين وأربعة فلم يزل يسأل

كثيراً من النساء فيجبنه بأربعة عشر فيتركهن، حتى صادف فتاة حسناء فقالت له أطْبَاء[١] الكَلْبَةِ وأخلافُ الناقة وثديا المرأة فتزوجها .

قال وقد عثرت على محاورة جرت بين خاطب ومخطوبته مترجمة عن بعض اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فها أنا أقص إليك قصصها بلسان عربي مبين .

حكى أن خاطبًا قال لمخطوبته فى اقتراحه أنا لا أريد من ربة منزلى إلا أن تجيد إصلاح طعامى وخياطة ثيابى، حتى إنها لترفأ الأثواب المشرفة على البلى .

فقالت الفتاة إنى ليعز علىّ أن تكون هذه طلبتك ومنتهى اختيارك ومبلغ علمك، فقد قيل يعرف الرجال باختيارهم، وإنى لأحسن فيك الظن بأن لك وراء ذلك مأربًا أعلى ومرامًا أعز وأغلى . وها أنت أبديت اقتراحك علىَّ وأنا أنثى فهاك سؤال الأنثى ولتكن رجلاً إنى أريد منك ان تكون متحليًا بحليتين ومتسمًا بخصلتين .

أما الأولى فأن تكون همتك همة الملوك كما قيل :

همتى همةُ الملوكِ ونفسى نفسُ حرٍّ ترى المذلَّة كفرَا

وأما الثانية فأن تكون نوراً يستضاء به فى مدلهمات الحوادث كالنجم الثاقب والبدر الساطع، متحليًا بحلى الآداب مشرقة عليك شمس المعارف .

قسمًا بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها لئن طلبت لذيذ أكلك وخياطة ثوبك لم ترم إلا طاهى الطعام أو خائط قميص وحزام، فأين سؤالك من سؤالى، وأين شاتك من جمالى، كيف لا وأنا أطلب ملكًا، منزلى ولايته رفيع العماد حسن الذكر بين العباد، ورجلاً بعيد الصيت فى البلاد سديد الأقوال حسن الأفعال، ولئن أعجبك بهاء جمالى وماء شبابى يترقرق فى محياى بهجة وحسنًا، وورد خدى

---

(١) والأطباء جمع طبى والأخلاف جمع خلف والطبى والخلف للإبل والطبى أيضًا لنحو الشاة والفرس، وكل من الطبى والخلف للحيوانات المذكورة كالثدى للمرأة .

الذى يكتسى تارة حمرة الخجل وأخرى صفرة الوجل(١) فكم أفل بدر جمال وانحنى غصن اعتدال وتحولت حال، فإذا ذبلت وردته وذهبت نضرته وقلت بهجته فهل ولوعك بى يدوم، ومن لى بقلبك إذا أعرض الجمال عنى وازورّ(٢) (ومن ذا الذى يا عَزُّ لا يتغير(٣))

وما جمال الظاهر كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فهو سريع الفناء، قليل الغناء.

أما الجمال الباطنى والكمال النفسى فهو الذى يؤمَن معه الغرام ما دامت الفتاة وما دام.

أما ظاهر الجمال فطيف خيال وحيلة محتال، فكيف يعول عليه فى دوام الوصال وهل حبك شمس تستمد من أضوائها سيارات آمالى ولا تُكسَف، ولعمرك كل فتاة زوجت فإما أن تنال نعيمًا مقيما أو عذابًا أليما.

وهاك(٤) قولا فصلا وحُكمًا عدلا: إنى أريد بعلاً حسن الأخلاق، طيب الأعراق، جميل الصفات، ذا نفس أبية، وهمة علية، فإن ظفرت منك بذلك فأنت بدرٌ وفؤادى منزلته، وكنت لك بقلبى أطوع من ساعدك لعضدك، ومن بنانك ليدك، وإلا فإصلاح الطعام وخياطة الثياب تنالهما من الفتيات بمنح الجنيهات، ولكن الفتيات العالمات بقدرهن لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا لم يجبنك بقلوبهن وأنشدت(٥):

طلبْتَ أثمن شىءٍ فى الوجودِ غلاً
قلبَ التى لم ينلْها كلُّ من سألاَ

---

(١) فإن الوجه يحمر خجلا ويصفر خوفا ووجلا. (٢) أى بعد.
(٣) من كلام كُثَيِّر الشاعر يخاطب عزة حبيبته والاسم منادى مرخم بحذف الحرف الاخير منه.
(٤) هاك: بمعنى خذ. (٥) هو من نظم الشيخ نجيب الحداد -رحمه الله تعالى-.

سَـــألتَنى وأنـا أُنثى ســـؤالَ فَــتى
فـقفْ لتـســألك الأنـثى وكن رجُـلاً
تريدنى أن أجـيـد الطبخَ حـاذقـةً
وأرفـأ الثـوبَ حـتى مـا عـليـه بَلاَ
أمـــا أنـا فطَـلابى أن تقـــدِّمَ لى
قلبًـا كـنجمٍ ونفـسًـا كـالسَّـمـاءِ عَـلاَ
فـإن طلبتَ لـذيذَ الأكلِ مـجـتـهـدًا
وأن يكـونَ عليك اللبسُ مُكتـمـلاَ
فـانتَ تـطلب طَبـاخًـا على قِـدْرٍ
وذاتَ خـيـطٍ صَناعًـا تُصلحُ الحُللا
أمـا سـؤالى فـأعلى من سـؤالك لى
ومُنيـتى فـوقَ مـا تـرجـوه لى أمـلا
إذ أبتـــغى مَلكًا بيـــتى ولايتُـــه
وأبتـغى رجـلا بـين الورَى مَـثَـلا
أنا صـغـيـرةُ سنٍّ فى الشبـابِ ولى
من فوقِ خَدِّىَ ورد يكتسى خجلا
لكنَّ ذا كُلَّه فـــانٍ بجـــملتِـــه
وعن قـريـبٍ ترى ورْد البـهـا ذَبلا
فـهـل يدومُ غـرامٌ فى فـؤادك لى
بعدَ الصِّبـا بعد مـا قد كـان مُقـتـبلا

وهل فؤادك بحرٌ لا قرارَ له
تجرى به سفنُ آمالى ولا وجلا
فإن كلَّ فتاةٍ زُوِّجت حملت
فى زهر إكليلها النعمى أو الأجلا
إنى أريد مساواةً ومعدلةً
وخيرَ بعلٍ بخيرِ الخُلقِ قد كَمُلاَ
فإن ظفرتُ بهذا منك كنتُ كما
ترومنى وأتاك القلبُ ممتثلا
أو لا فإن الذى تبغى خياطتَه
وطبخَه فأمورٌ نيلُها سَهْلاَ
تنالُها بأجورِ المالِ تبذلُها
أما الفتاةُ وإخلاصُ الفتاةِ فلاَ

* * *

الفصل السادس

(فى بعض آداب السفر)

ثم أخذ التاجر بيد إبراهيم يقصدان الترويض فى بعض البساتين، وأضمر فى نفسه صحبته لما أعجبه من ذكائه وبراعة منطقه وحسن شمائله، فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث، فكان منها أن قال التاجر لإبراهيم : اعلم أيها الشاب أنى تركى الأصل وجبت البلاد شمالاً وجنوبًا شرقًا وغربًا، وها أنا الآن استوطنت مدينة أصبهان فى البلاد الفارسية، وقد أتيت للتجارة فى هذه الديار ليسومها(١) التجار،

(١) سام البائع السلعة عرضها للبيع وذكر ثمنها وسام المشترى السلعة وسام بها طلب ابتياعها .

ومتى راجت بضاعتها وتم بيعها رجعت إلى أهلى وأولادى، فإن أحببت أن ترافقنى فى أسفارى وقضاء أوطارى كنت لك معينًا بنفسى ومالى على هذا المطلوب، وأبحث لك بحثًا دقيقًا.

فتوسم الشاب فيه الخير وتذكر قول سيدنا على كرم الله وجهه يا بنىَّ إذا أحببتم الرجل بدون سابقة إحسان منه إليكم فاعلموا أن فيه خيراً فارجوه، وإذا كرهتم الرجل بدون سابقة أذى منه إليكم فاعلموا أن فيه شرًّا فاحذروه، وقول سيد نوع الإنسان وأفضل ولد عدنان عليه الصلاة والسلام « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

فرافقه ووافقه وصاحبه وماشاه ونادمه، وأخذ منه وأعطى فراجت بضاعتهم وربحت تجارتهم، وكانوا مهتدين فى أسفارهم فعرف كلٌّ مشربَ صاحبه وخبر مصادره وموارده.

ثم رجعا وهما فرحان إلى بلاد أصبهان فى أمن وأمان وربح بلا خسران فألقيا عصاهما واستقرت نواهما وقرا عينًا وذهب عنهما وهن السفر بالحضر.

ثم أقبل ذلك الشيخ العظيم على الفتى إبراهيم وقال له : اعلم أنه ما كان سفرى معك إلا لأخبر خبرك، وقد عرفتك صديقًا وفيًّا كما قيل (السفر يسفر[١] عن أخلاق الرجال) وإنما تُعرف أخلاق الإنسان فى أوقات الشدائد التى أشدها الأسفار كما قال أفضل أولى الألباب[٢] (السفر قطعة من العذاب) وإن عندى ابنة نشأت على تعلم العلوم والآداب، وارتضعت أثداء الأدب، ووردت مناهل بحور المعارف، واغترفت من تليدها والطارف[٣] وكان أول تعليمها فى بلادنا التركية وهى كما تعلم محط رجال الفضل والأدب، علمها ظاهر ونورها باهر إليها يهرع

(١) أى يظهر ويبين ومنه أسفر الصبح .
(٢) سيدنا رسول الله ﷺ علم الأعلام .
(٣) القديم منها والحادث .

الطالبون وعليها يعول المسلمون[١] قلوبهم للعلوم واعية لا تسمع فيها لاغية، وبعد أن أتينا إلى أصبهان أكبت على مطالعة الكتب العلمية والعلوم الأدبية، فهى على شاكلتك تميل إلى التفكر فى المصنوعات وعجائب المبدعات وغرائب السموات، وقد أنفت من جميع من خطبها من أبناء التجار والأمراء الكبار وأرباب اليسار، وانما اخترتُك لها خليلاً بعد أن تبحث عنها وتعرف أحوالها الظاهرية والباطنية، وأنت بعد ذلك بالخيار، فسل من تريد، وإنما فعلت ذلك لأنه قيل فى المثل اعتن بانتقاء بعل ابنتك أكثر من اعتنائك بحليلة ولدك[٢]، وها أنا اصطفيتك لنفسى، واخترتك لابنتى، فشكره إبراهيم شكرًا جزيلاً على صنائعه الجميلة .

* * *

الفصل السابع

(فى سؤال إبراهيم للفتاة فى أنواع من العلوم)

(وفيه كيفية التفكر فى العجائب)

ثم بعد أن سأل إبراهيم عنها من الأصحاب والجيران وعامة أهل البلاد وخاصتهم ووصفوها له وجدها بارعة الجمال عالية العرفان، قد فاقت أهل زمانها جمالاً وبهاء وأخلاقًا وآدابًا . وعرفت الأشغال المنزلية والأعمال اليدوية، فاستأذن من أبيها أن يسألها مسائل من العلوم الحديثة والقديمة فخصص لهما كل يوم ساعة من النهار بحيث تضرب بينهما الستائر ويجلس هو وإخواتها خارجها وتجلس هى وأترابها[٣] المتعلمات داخلها ولما حضر أبوها أول مرة مجلس المناظرة وجد الخجل باديًا عليهما فقام من المجلس ولم يرجع إليه بعد ذلك فأخذ يسألها إبراهيم فى أنواع من العلوم العقلية والنقلية كالتوحيد والتصوف والفلسفة والفقه واللغة والأدب وعن

---

(١) إذ كانت مركزا للخلافة الإسلامية .

(٢) وفى القول الدارج : اخطب لبنتك لا لابنك .

(٣) أى من يماثلنها سنا .

الصنعة الإلهية، وما اكتشفه العلماء فى هذه الأعصر الأخيرة من كنوز المعارف واللطائف والبدائع والعجائب فوافق شن طبقه(١) وكانا متطلعين من كلام الأوائل وقرءا العلوم الحديثة فى المدارس فمرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، من كل غريبة شاردة ولطيفة نادرة، فكان يسألها وتجيب وتسأله ويجيب.

فكان أول ما سألها أن قال أى علم من العلوم أوفق لطبعك وآنس لفكرك وأبهج لقلبك، يسرك لدى الأحزان ويؤنسك إذا تحاماك الخلان، جليسك فى الخلوة ومنير وجهك فى الجلوة.

قالت تلك المعارف الربانية والعجائب الإلهية، وليس لها حد محدود ولا علم مخصوص، بل كل علم فيه عجائبه وغرائبه أشرقت فيه أنواره وظهرت فيه آثاره، قال الله تعالى ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾(٢) كعلم الفلك وعلم تخطيط البلدان (الجغرافيا) وعلم طبقات الأرض (الجلوجيا) وعلم الإنسان والحيوان والنبات والمعادن والجبال والأنهار:

كلُّ شيءٍ منكم عليكم دليل وضح الحقُّ واستبان السبيلُ

ولقد كنت فى مبتدأ أمرى أنتبذ من أهلى مكانًا قصيًّا فى بستان لوالدى ويحار فكرى حين أنظر إلى السماء وزرقتها، والنجوم المرصعة فيها وجمالها وبهائها وحسنها، ويلذ لى ذلك الفكر وأنشد قول مجنون ليلى:

وأخرج من بين البيوتِ لعلَّنى أُحدِّث عنكِ النفسَ بالليل خاليًا

فيشتدُّ شوقى لا سيما إذا جنَّ الظلامُ واختلط وأرخى الليلُ سدولَه، وهكذا إذا هبت نسمات الأسحار على أغصان الأشجار، وغنت الأطيار، فأذكر عند ذلك الصنعة الإلهية والحكم الربانية، ويبتهج قلبى ويأنس بها لبى.

(١) شن وطبقه اسمان لرجل وامرأة عرفا بالذكاء وهو مثل يضرب للمتوافقين.

(٢) الآية ٣٥ من سورة «النور».

ومن عجيب ما اتفق لى أنى كنت أعجب بهذا البيت المتقدم فى خلوتى وأجده يوافق ما فى نفسى من الميل الغريزى إلى الوقوف على أحوال هذه العوالم الإلهية .

ولما ساعدنى الحظ على مطالعة الكتب والتضلع من العلوم العقلية والنقلية والفكاهية وقرأت البيت المذكور فى قصيدة طويلة رأيت بعض العلماء قال : إن عليه نفحة معنوية وإشارة ربانية فوافق رأيه رأيى ومشربه مشربى فحمدت الله على ذلك وهذا ديدنى(١) ودأبى .

وكانت كلما ذكرتْ شيئًا من ذلك يتلألأ وجه إبراهيم نورًا وبهجة لملاءمة ذلك لأفكاره وطباعه .

ثم قال لها إبراهيم ماذا تقولين إذا نظرت لهذه العوالم من وجهة الخالق سبحانه وتعالى .

فقالت : هذا بحر لا ساحل له فهاك(٢) مقالاً وجيزًا إن الله سبحانه وتعالى وسعت رحمته كل شىء، فهو يكلؤنا بحفظه ليلاً ونهارًا، ألا ترى إلى الشمس المشرقة فإنه إذا قرب ظهورها من المشرق وسطعت أنوار الفجر، تحرك كل حيوان وانتعش بعموم رحمة خالقه اللطيف بعباده الرءوف بهم؛ فتأخذ الحيوانات تَجدُّ فى تحصيل ما به قوام حياتها فإذا ضعفت قواها وأحبت الراحة بالنوم أخذ تلك الشمس المشرقة وواراها بالحجاب عن أعينهم، فهناك ترى كل حيوان يرجع إلى سكنه ويأنس بحبِّه ويجن عليها الليل، ويكسو وجه الأرض بلباس ظلمته، ويحمى الله عز وجل مخلوقاته ويحرسهم بعينه التى لا تنام، وهم آمنون مطمئنون .

فإذا أخذت الأعضاء راحتها وأحبَّت السعى على معاشها أتى بالشمس كَرة أخرى، وهكذا فالدنيا كبيت مظلم والله ربه والحيوان عياله والشمس سراجه، فمتى

---

(١) العادة أو الدأب . (٢) إليك أو خذ .

احتاج العيال للضوء جعل فيها سراجه الوهاج قال تعالى ﴿ **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** ﴾(١)

ومتى استغنوا عنه واراه عن أعينهم بالحجاب وغطاهم بغطاء رحمته وأنزل عليهم سكينته، ولذلك ترى كل شيء فى الليل خاشعًا ساكنًا خاضعًا والسكون عامًا والحيوان هادئًا فهناك تتجه قلوب أهل المحبة العارفين والعلماء العاملين لجمال وجه ربهم إذ لا يرون إلا واحداً فى الوجود، ويفهمون معنى قوله عز وجل ﴿ **لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ** ﴾(٢) وإجابته نفسه بنفسه بقوله ﴿ **لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾(٣) وهناك يأخذون فى التهجد، وقلوبهم منشرحة مستطلعة إلى كشف الحجب عنها وظهور جمال إشراق بهجة الذات العلية.

فسبحانك اللهم ياذا الجلال والبهاء، غمرتَ عبادك برحمتك وآنستهم بلطفك، لك خشعت القلوب ودعتك الألسن على اختلاف لغاتها، وبك ابتهج المسبحون وبذكرك لهج المخلصون ولنور وجهك تطلع المحبون، وفى جمال بهجة أنوارك تحير العاشقون، أنت الأزلى الأبدى الأول الآخر الظاهر الباطن، فكل مخلوق تحت قهر عظمتك مغمور برحمتك مستشرف لنعمتك، ما خَلْقُ الأولين والآخرين عندك إلا كنفس واحدة وأنت السميع البصير، تعلم ما بين أيدينا وما خلفنا وما فوق السماء وما تحت الأرض، وما أحسن ما روينا من كلام أهل محبتك العاشقين لجمالك:

وعلى تَفننِ واصفيـــه بحسنه ... يَفْنى الزمانُ وفيه ما لم يُوصَف

فانبهر إبراهيم من حسن كلامها ثم قال كيف تعتبرين من النظر فى هذه العوالم من جهة الكمالات النفسية والآداب وغير ذلك فقالت:

---

(١) الآية ١٣ من سورة «النبأ».

(٢، ٣) الآية ١٦ من سورة «غافر».

ليس شيءٌ إلا وفيه إذا ما قابلتْه عينُ البصيرِ اعتبارُ

وكل فطن له شواهد فيما يراه من هذا الجمال الباهر فاذا رأى ضياء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم وحلل الجمال المشرقة فى أكناف[١] السموات والأرض عمد إلى نفسه فجملها بأحسن الصفات، وأبهاها بحيث يكون بسامًا نظيف الظاهر والباطن مقللاً للغذاء ملازمًا للاستحمام فى أغلب الأوقات والوضوء تاركًا للحقد والحسد والغل، مواظبًا على أداء الصلوات محبًّا للناس جميعًا متوددًا إليهم، فإن من يحمل الحقد على الناس ولا يحبهم دنئ المنزلة قال عنترة :

لا يحملُ الحقدَ من تعلو به الرتبُ

ولا ينالُ العلا مَنْ طبعُه الغضبُ

ومتى ظهر بهذه الصفات أشرقت أنوار جماله وكماله على كل من جالسه أو سمع بسيرته ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ﴾[٢] فمن عمل بهذه السيرة كان كالشمس إشراقًا والبدر بهجة والنجم هداية وكان مباركًا أينما كان، وظهرت أنواره فى قلوب نوع الإنسان .

فقال لها إبراهيم : وهل يستفاد غير ذلك ؟

قالت : نعم كثير منها أنه لا يكون الإنسان كاملاً، إلا إذا وقف نفسه على الأعمال الشريفة العامة، بحيث يكون كالكواكب المشرقة على العاصى والطائع، ولا يطلب بذاك أجرًا ولا يرغب عليه شكرًا، ولعمرك لم يمدح الله عز وجل أحدًا من عباده بذلك إلا المخلصين من الأنبياء وأكابر الأتقياء، أما قرأت كلمات المرسلين ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[٣] وما ورد فى

---

(١) والمفرد كُنف : جانب الشيء .

(٢) الآية ٣١ من سورة «مريم» .

(٣) الآية ١٠٩ من سورة «الشعراء» .

حكاية الله عن أكابر الدين ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾[١] فمن اتسم بهذا الوصف الجميل وعقل رموز هذه الكائنات، كانت حركاته وسكناته خالصة لله عز وجل، ومنها أنه لا يضيع وقتًا من أوقاته سُدى بلا فوائد علمية ولا كمالات أدبية :

على نفسه فليبْك من ضاع عمرُه

وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ

وذلك لما يرى من سير الأجرام الأثيرية، والكواكب العلوية بلا انقطاع ليلاً ونهارًا صيفًا وشتاء .

ومنها أن يقسم الأعمال على الأوقات ولا يؤخر عمل يومه لغده لما يرى من سير النجوم بحساب متقن لا يتغير بمرور الزمان، فالإصباح والإظلام والأشهر والأعوام والقرون منتظمة لأنها جارية على حساب محقق، فلينظم العاقل أعماله فى سلك الأوقات بالترتيب، ومن لم يعمل بهذه السيرة اختل نظام حياته وضاع أكثر أوقاته سدى إذ لا يدرى ما يصنع فيها .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقسم أوقاته أقسامًا ويجعل لكل قسم عملاً مخصوصًا (راجع الشفا للقاضى عياض) .

وترى أرباب الدواوين وسُوَّاس الدول وأرباب الأقلام خصصوا لكل وقت عملاً ومن ذكرناهم هم أرباب الحل والعقد فى هذه الحياة الدنيا وهم المدبرون لشئونها، فانظر كيف نهجوا على حسب هذا النظام السماوى .

ومنها : الحكمة والعدل، ووضع كل شىء فى موضعه، ليتم النظام .

سُئل كسرى أنوشروان[٢] بم انتظم ملكك؟ فقال بالعدل؛ لأنى نظرت فى

(١) الآية ٩ من سورة « الإنسان » .

(٢) أحد ملوك الفرس .

ملكوت السموات والأرض فرأيته قائماً بالقسط، فعلمت أن الملك لا يدوم إلا بالاقتداء بملك الملوك فى العدل والنظام على حسب الإمكان .

ولقد شهد الله عز وجل لنفسه بأنه لا إله الا هو مدبر الخلق على وجه العدل والقيام بالقسط، وشهدت بذلك ملائكته والعلماء بالله عز وجل من بنى آدم كما قال تعالى ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[١]

فكل من عرف الأشياء على ما هى عليه علم قطعًا قيام الله عز وجل بتدبير ملكه، وشاهد العدل فى كل ما يراه فى هذا العالم، ولعمرك لا يعرف ذلك على أتم وجه إلا الله عز وجل، ثم ملائكته ثم الكُمَّل الراسخون من بنى آدم، أما غيرهم فلا يعرفون من عدل الله تعالى ونظام ملكه إلا اسمه .

قال ابن عباس : شهد الله لنفسه بنفسه قبل أن خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر .

أقول : قيامه بالقسط فى تدبير شؤون خلقه ونظام عدله هو موضوع كتابنا ميزان الجواهر الذى سيلى هذا إن شاء الله تعالى[٢] .

ثم قالت ومما يستفاد من الكائنات ترك النوم نهاراً لأن الله سبحانه وتعالى جعل الليل لنسكنَ فيه والنهار للعمل النافع، ولذلك ترى حذاق الأطباء يقولون بضرره، والتجربة شاهدة بذلك، اللهم إلا غفوة قبيل الظهر قصيرة جداً لمن يتهجد ليلاً[٣] .

فقال لها إبراهيم قد قلت : يستعمل الإنسان الحكمة فكيف ذلك؟

فقالت : لا يتكلم إلا حيث يحسن الكلام ولا يسكت إلا حيث يحسن

---

(١) الآية ١٨ من سورة «آل عمران» . (٢) اطلبه مع هذا الكتاب . (٣) تساعده على قيام الليل .

السكوت، ولا يتحرك ولا يسكن إلا لحكمة فإنى ما رأيت مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا بنظام، فقلت: من خالف ذلك فهو من الجاهلين الفاسقين.

واعلم أن كل صفة من صفات الإنسان المحمودة فضيلة بين رذيلتين فهما طرفان وهى الوسط كالكرم فإنه وسط بين البخل والتبذير وهما مذمومان وهو الممدوح، وهكذا التواضع بين التكبر والذلة والشجاعة بين التهور والجبن وغير ذلك كما قيل:

عليكَ بأوساطِ الأمورِ فإنها سبيلٌ إلى نهج الصراطِ قَويم
ولا تكُ فيها مُفرطًا او مفرِّطًا كلاَ طرفيْ كلِّ الأمورِ ذميم

فقال إبراهيم لها ما تقولين فى معنى (ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد).

فقالت: إنى تأملت فى معناها ليلة من الليالى بعد صلاة المغرب وأنا أنظر فى عجائب السموات فظهر لى أن الإنسان تخدمه هذه العوالم الأربعة فإنا نشاهد أن السموات مصدر الخيرات التى تنزل على الأرض وتكون منهما المنافع الجليلة وهى بينهما كما هو معلوم، ثم هناك عوالم أخرى وراء هذه السموات، لا نشاهدها فهى فى علمه تعالى لم يطلعنا عليها يأتى لنا منها إمداد، فتأمل كيف ذكر النبى صلى الله عليه وسلم هذه العوالم الأربعة على هذا الترتيب، وكأن هذا إشارة إلى أن كل إنسان وحده مخدوم بهذه العوالم جميعها، فكل جزء صغير من أى واحد منها نعمة عليه قال تعالى ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾(١) ثم قال لها إبراهيم قد ظهر بالاختبار أن الأقسام العقلية لكل شيء يظهرها الله فى الخارج مثلاً يتصور العقل أن الممكنات فى التناسل أربعة أقسام لأنه إما أن يكون نسل الإنسان

(١) الآية ٣٤ من سورة «إبراهيم».

مثلاً إناثًا فقط أو ذكورًا فقط أو مركبًا منهما معًا أو يكون الإنسان عقيما وقد ظهر هذا كله فى الوجود قال الله تعالى ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾[١].

قال : هل تعرفين شيئًا نظير هذا؟

فقالت : نعم إن الجهات ست ونرى النبات يتجه برأسه إلى أسفل لتناول الغذاء من الأرض، واختص الحيوان غير الإنسان باتجاه رؤوسه إلى الجهات الأربع، والإنسان وحده اتجهت رأسه إلى جهة العلو وكأن هذه إشارة عجيبة إلى أن النبات أسفل طبعًا والحيوان أرقى منه ومسلط عليه، والإنسان أعلى منهما ومسلط عليهما ومرشح للترقى إلى عالم الملائكة، وكذلك نتصور أن يكون الموجود إما مطيعًا لله تعالى أو عاصيًا له، أو لا يتصور منه طاعة ولا معصية أو جامعًا لهما، وقد أبرزه ربك فى الخارج، فالمطيع دائمًا هم الملائكة، والعاصى دائمًا هم الشياطين، والذى لا يتصور منه طاعة ولا معصية هو الجماد، والجامع لهما معًا هو الإنسان.

وهكذا الخطوط ثلاثة مستقيم ومنكسر ومنحنٍ، وقد أبرز ربك فى الخارج هذه الأشكال فى مخلوقاته.

فقال لها إبراهيم : حسبك[٢] ما ذكرتيه، وأخبرينى عن أعجب شيء سمعتيه فى الاستكشافات الحديثة.

قالت : نعم، قرأت فى بعض الجرائد أنهم عثروا على بقر فى الجهات الشمالية الجليدية على أعينها نظارات طبيعية، وضعها ربك من حين خلقتها لتقيها شعاع الشمس المنعكس عن الثلج فى الأرض، فإن الأرض هناك مكسوة ثلجًا دائمًا وهذه

---

(١) الآيتان ٤٩، ٥٠ من سورة «الشورى».

(٢) أى يكفيك.

داخلة فى عموم قوله عز وجل ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾(١).

ولعمرك، ان هذه من أعجب آثار رحمته ولطفه بخلقه.

ومن غرائب ما سمعت من أساتذتى حين تلقى العلوم أن فى بلاد الصين نوعًا من الحيات جميل المنظر مرقشًا منقوشًا بمنظر عجيب حسن تربيه نساء الأكابر ويجعلنه زينة لهن وجمالا، وهذا النوع خال من السم وقد جعل الله ذلك الجمال فيه صيانة له عن مد يد الأذى إليه وهو يقوم للنساء مقام الاسورة فى أيديهن بحيث يعودنه من صغره على الاستدارة على أيديهن كسوار لا نظير له فى العالم من حيث الجمال.

كما أن فى بلاد السودان وأفريقيا وآسيا ثعبانًا يقال له البواليس سامًّا كالمتقدم، فأعطاه مقسم القوى اللطيف الخبير جسما جسيما ومنظراً هائلا وقوة عظيمة فيبلغ طوله من ثمانية أمتار إلى عشرة، وهو غليظ كجذع النخلة ويسكن فى المغارات وتجاويف الأشجار العتيقة، ولا يخرج إلا إذا جاع، وينتظر مجىء حيوان ليفترسه، ومتى ظفر به التف على جسمه وهشمه فيأكل الغزال وبقر الوحش وغيرهما، وربما ابتلع الإنسان إذا نام ضامًّا رجليه، فإذا فرقهما ابتلع إحداهما حتى إذا وصل إلى أصل الفخذ استيقظ النائم وأمكنه شق فمه بسكين وأخرج رجله سليمة إذ ليس له أسنان البتة، بل جعلت معدته تطبخ الحيوان طبخًا، فانظر يا سيدى أنواع الحيات كيف جعل الله سبحانه سلاح بعضها الجمال وسلاح الآخر القوة، وسلاح غيرهما السم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾(٢)

* * *

---

(١) الآية ٢١ من سورة «الحجر».

(٢) الآية ٤٤ من سورة «النور».

الفصل الثامن

(فى النحل وعجائبه)

(واستطراد بذكر لقاح ذكور النبات لإناثه)

ثم سألت الفتاة إبراهيم وقالت له يا سيدى شَنِّف مسامعى بعذب ألفاظك وجميل معناها فى تفسير معنى العجب التى أسمعها منك من أول أن شرفت منزلنا وسألتنا .

فقال اعلمى زادك الله علما وحرصًا على الفوائد أن معنى العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة الشىء أو عن معرفة كيفية تأثيره .

فإن الإنسان إذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهده قبل ورأى تلك الأشكال المسدسة المنتظمة تحير لعدم معرفة فاعله، فإن قيل له إن فاعله هو النحل تحير أيضًا من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع المعجزة لمهرة المهندسين مع ما لديهم من العدَد والآلات والإدراك والتجارب وطول المدة، وكيف اهتدت إلى تغطية تلك البيوت بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطًا بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الغار ويبقى كالبرنية[1] المنضمة الرأس فهذا معنى العجب، وكل ما فى العالم بهذه المثابة، إلا أن الإنسان يدركه فى زمن صباه عند فقد التجربة ثم يبدو فيه غريزة العقل شيئًا فشيئًا وهو مستغرق الهم فى قضاء حوائجه وتحصيل شهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته، فسقط من نظره بطول الأنس بها، فإذا رأى حيوانًا غريبًا أو فعلا خارقًا للعادة انطلق لسانه بالتسبيح فقال سبحان الله، وهو يرى طول عمره أشياء تتحير فيها عقول العقلاء وتندهش فيها نفوس الأذكياء ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾[2] .

---

(١) البرنية إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة « يوسف ».

فقالت يا سيدى ومن أين هذا الشمع ولِمَ اختار الشكل المسدس ومن أى شىء يجمع العسل؟.

فقال لها : أما الشمع فإن النحل يجده على كثير من النباتات مادة بيضاء كالدقيق ونشاهده بكثرة على قصب السكر، وأما تلك الخلايا وتسديسها فاعلمى أنها اختارت من جملة الأشكال الشكل المسدس فلم تبن بيتًا مستديرًا ولا مربعًا ولا مخمسًا بل مسدسًا لخاصية فى الشكل المسدس، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرَجٌ ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل من الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير، ثم تتراصُّ الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، فهذه خاصية هذا الشكل، وما أشبه هذا النظام الصغير بالنظام الكبير نظام السموات والأرض فإنه كله بحساب متقن وميزان عدل وقسطاس مستقيم، بل هذا الذى ذكرناه فى النحل من الميزان الذى قامت به السموات والأرض وبه أحكم كل شىء فى هذا العالم، بل كل حيوان من صغير وكبير هداه الله عز وجل لمعاشه وجميع لوازمه، قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1] أى هدى الحيوان إلى ما يلزم له فى هذه الحياة، ولقد عرف الناس ذلك قديمًا حتى استدل الشاعر العربى على جودة الأرض ببناء الضب[2] فيها بيته فقال :

سقى الله أرضًا يعلم الضبُّ أنها

بعيدٌ عن الآفات طيبةُ البقْلِ

---

(١) الآية ٣ من سورة « الأعلى » .

(٢) الضب : حيوان من جنس الزواحف من رتبة العَظاء، غليظ الجسم خشنه وله ذيل عريض حرش أعقد يكثر فى صحارى الأقطار العربية .

بنى بيتـه فيهـا على رأسِ كـدية[١]

وكل امرئٍ فى حرفة العيش ذو عقل

(أقول وسنوضح هذا الموضوع فى ميزان الجواهر إيضاحًا تامًا إن شاء الله تعالى)[٢]

قال إبراهيم وأما العسل فإنه قد وضح في هذه الآية أعظم وضوح قال تعالى ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٣] الخطاب بهذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل فرد ممن له عقل سليم وفكر مستقيم، يستدل به على كمال قدرته تعالى ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته وأنه كيف ألهم هذا الحيوان الضعيف أن يتخذ تلك البيوت ويدبر ذلك التدبير، مع أنه من أضعف الحشرات وأصغر الحيوانات، وكيف جعل له ملكة مسلطة عليه وقد قسمت عليهن الأعمال فجعلت على نفسها وضع البيض فتبيض فى كل ثلاثة أسابيع من ستة آلاف الى اثنى عشر ألفًا[٤] وجعلت على الشغالة التى عندها جميع الأشغال (والشغالة عندها خناثى النحل أى التى ليست إناثًا ولا ذكورًا) وعدد ما يكون فى الخلية من عشرين ألفًا إلى ثلاثين ألفًا، فمنها البواب الذى لا يسمح لأحد من غير أصحاب الخلية أن يدخلها ومنها ما هو منوط بخدمة البيض، ومنها ما هو منوط بتربية صغار النحل،

---

(١) أصل الكدية الأرض الغليظة أو الصلبة لا تعمل فيها الفأس .

(٢) اطلبه مع هذا الكتاب .

(٣) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة « النحل » .

(٤) وجد فى الأصل المطبوع من أكثر من مائة عام ما يلى : من كتاب المختصر المفيد فى الأشياء والمواليد لحضرة أحمد افندى عبد العزيز .

ومنها ما يبنى الخلايا، ومنها ما يجنى مواد الشمع التى تبنى منها الخلايا، ومنها ما يجنى رحيق الأزهار الذى يستحيل فى بطونها عسلاً تخرجه من فمها لتتغذى به صغار النحل متى خرجت من البيض، وينتفع به الناس.

وكل من هذه الطوائف تؤدى ما عهد إليها بنشاط وهمة على مقتضى أوامر الملكة المسماة باليعسوب(١) أو الخشرم (وتسميها العامة أم النحل) وهى أعظمها جثة وأكبرها خلقة.

ومن عجيب أمر تلك الملكة أنها تقتل كل ما وقع على نجاسة من رعاياها، ومن سياستها أنها إذا أرادت الحمل ارتفعت فى الهواء واختارت ذكرًا من غير خليتها ترفعًا عما تحت إدارتها فإن عندها ذكورًا لا شغل لها عددها من خمسمائة إلى ألف فى الخلية إلا أن تبقى لتسافد الملكة وتحبلها ومتى ظهر حملها قتلت الخناثى هؤلاء الذكور، لئلا يضيق المكان ويفنى العسل فسبحان من ألهم تلك الحشرة الضعيفة فعل أعظم الملوك من قدماء المصريين الذين كانوا يحكمون على من لا صنعة لهم بالقتل، وألهم تلك الملكة أن حفظ رئاستها وشرف ملكها لا يتم إلا بالترفع على ما تحت أمرتها ولم ترض لنفسها أن يعلوها أحد رعاياها، كما حرم فى شرعنا الإسلامى نكاح العبد لسيدته، وذلك لئلا يختل نظام المعيشة بمحاولة كل من الزوجين الرئاسة على الآخر، هذا بكونه زوجًا وقد قال تعالى ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾(٢) وهذه بالملك.

ويا للعجب كيف حفظت النحلة شرفها بذلك ولم تحتج إلى أوامر شريعة، أما نوع بنى آدم فلقصور بعضهم عن ذلك جاء تنبيههم عليه بالشريعة الغراء، وهذا يناسب ما سمعته من شيخنا الشيخ حسين المرصفى رحمة الله عليه حيث قال: نهاية الإنسان بداية الحيوان.

(١) هى ملكة النحل وقد كان يظنها العرب القدماء ذكرا لكبر حجمها.

(٢) الآية ٣٤ من سورة «النساء».

ولعمرى إن فى قتل خناثى النحل لذكورها عبرة وتبصرة تشير إلى أنه لم يخلق فى هذا الكون مخلوق إلا لحكمة ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾(١) .

فياليت شعرى كيف يرى الإنسان هذه العجائب فى الحيوان الضعيف ثم يترك أعضاءه وحواسه ومواهبه الشريفة هملا ، فضلا عن استعمالها فى أنواع المفاسد أعاذنا الله من ذلك .

ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة والأفعال الغريبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة ، دل ذلك على الإلهام الإلهى فكان شبيهًا بالوحى فلهذا قال تعالى ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾(٢) وهى قسمان وحشية تسكن الجبال والإشجار والكهوف وأهلية وتأوى إلى البيوت فيبنى لها الناس الخلايا فلذلك قال الله عز وجل ﴿ **أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾(٣) أى يبنون لك من الخلايا .

ثم إن هنا سرًّا غريبًا ومعنى دقيقًا وهو أن الله الذى دبر الكون على أعجب نظام وأبدع إتقان خلق الزهر على ألوان شتى من أبيض ناصع وأصفر فاقع وأحمر قانٍ أنواع مختلفة ومناظر متنوعة ، وجعل منها الذكر والأنثى أى أن بعض الزهر ذكر تلقح منه الأنثى ، والآخر أنثى تحتاج لطلع الذكر ، وجميع النباتات التى على سطح الكرة الأرضية على هذا النسق ، وهذا مشاهد فى النخل ، ثم منها ما له منظر بهيج يسر الناظرين وجمال ورونق ، ومنها ما ليس كذلك ، فالذى منظره جميل يحتاج فى إلقاحه إلى الحشرات كالنحل ، وحكمة ذلك الجمال ، أن تلك الحشرات إذا رأت حُسنًا وإشراقًا وبهجة فى ذلك الزهر طارت شوقًا إليه وشغفًا به حتى وصلت إليه ؛ فتمتص من رحيقه المختوم تلك المادة الحلوة التى فى أسفل الزهرة ، وقد علقت

---

(١) الآية ٢٧ من سورة « ص » .

(٢ ، ٣) الآية ٦٨ من سورة « النحل » .

إذا ذاك جوانبها بطلع الذكر وهى مادة ناعمة تشاهد فى الزهر فإذا قضت وطرها وأرادت طيرانها خرجت إلى الزهرة الأخرى فدنت إليها وشربت منها فاحتكت جوانبها فى مبيض الأنثى فألقحتها ولا علم لها بذلك، وانما تفعل على مقتضى تدبير مدبر الكون الذى سخر الحيوان والإنسان والسماء والأرض وكل حيوان يسعى لغرضه، وهو فى الحقيقة يعمل أعمالا عجيبة تحتها منافع غزيرة وفوائد كثيرة وهو لا يعلم بها، وتلك الفوائد تعود لا محالة على غيره تسخيراً من مدبر هذا الكون، فما لنا لا نعتبر بعد إذ هدانا الله ورأينا عجائبه وتسخيره، وكيف نفعل فعلاً ولا نخلص فيه لله الذى صنع هذه الغرائب كلها إذ لا يليق بنا أن تكون أفعالنا للنفع العمومى، ونحن لا نشعر كهذا الحيوان أو لا يكون فرق بيننا وبينه ونحكم نياتنا فى أعمالنا لوجه الله ذى الجلال والإكرام. ثم إن الحشرات لا تزال تنتقل من زهرة إلى أخرى حاملة من الذكر واضعة فى الأنثى إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب واعتبر وتبصر.

ولما كان للنحل فوائد كثيرة من تلقيح الأزهار كما ذكرنا ووضع الشمع ووضع العسل أمرها تعالى بقوله ﴿ **ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا** ﴾[١] أى مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها لا يتوعر عليك مكان تسلكينه ولا تمنعين من رحيق تشربينه.

ولما كانت تلك الأزهار مختلفة الألوان والروائح والطعوم كما أشرنا إليه آنفًا وخرج العسل مختلفًا كذلك على حسبها، أردفه عز وجل بقوله ﴿ **يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾[٢] من الأمراض التى شفاؤها فيه ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٣] فيعرفون بذلك عظمته تعالى وحكمته التى تعجز العقول وانه وضع تلك الإسرار كلها فى إضعف خلقه وإدناها لا إله الا هو العزيز الحكيم.

(١، ٢، ٣) الآية ٦٩ من سورة «النحل».

فقالت يا سيدى قد ذكرت أن فى الشجر ذكرًا وأنثى فاستمنحك توضيح هذا المقام لغرابته على الأفهام، فقال إبراهيم إن كافة النباتات لا تثمر إلا بإن يلقح ذكرها أنثاها، واعلمى يا عقيلة المجد وربيبة الشرف، أن الزهرة قد تشتمل على أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث معًا، وهذا هو الأغلب فى النباتات فيحصل التزاوج بين الزوجين ويتم القران بين الفريقين، ويرتفع الشقاق من البين(١) وصل دائم وخل ملائم وتسمى تلك الزهرة الجامعة بينهما خنثى، وهى كبيت حوى زوجين وحصل بينهما الوفاق فإن لم تشتمل الزهرة إلا على أعضاء التذكير فقط سميت فى عرف النباتيين ذكرًا أو على أعضاء التأنيث فقط سميت أنثى، وقد جعل اللطيف الخبير تلك الأعضاء محفوظة بالزهرة الملونة غالبًا بالألوان البديعة المسماة فى عرف علماء النبات (بالتويج) المحاطة من الظاهر بغلاف لونه أخضر مسمى عندهم (بالكأس) جعلهما مبدعهما لصيانة تلك الأعضاء ووقايتها وحمايتها إبقاء للنوع إلى ما شاء خالقه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وكم فى تلك الأزهار من فوائد جليلة فروائحها ذكية تشرح الصدور وتسر القلوب ومنها ما هو نافع طبًّا كالإقاح (فراخ أُم على) وزهر البنفسج، ومنها ما يستعمل فى العطارة كالورد والفل وزهر النارنج، ومنها ما يستعمل فى الصباغة كزهر القرطم .

واعلمى أن الزهرة الذكر والزهرة الأنثى وفى كلتا الحالتين لا يتم اللقاح بينهما إلا بأشياء خارجة كالماء والحشرات والإنسان(٢) والهواء والأخير هو الأعم الاغلب، وأما الماء فقد علم أنه هو الحامل طلع زهرة البشنين الذكر وموصلها إلى الأنثى، وصنع الإنسان مشاهد فى النخل .

وإنى ليأخذنى العجب من صنع ربى عند التفكر فى تلقيح الذرة الشامية

---

(١) من البعد والفراق .

(٢) كما يحدث فى النخيل .

والخروع فأما الذرة فكل عود منها ذكره فى رأسه يسقط الطلع منه على أنثاه المسماة بالكوز عند العامة لكونها أسفل منه، فهى تستمد الطلع بواسطة الخيوط الملونة بالحمرة أو البياض المسماة عند العامة بالشرابة، وهذه الخيوط ينزل عليها الطلع من أعلى العود وهو المسمى (الكذاب) عند العامة، ويا للعجب لهذه التسمية كأنهم لما رأوا أن هذه الشماريخ لا يخرج لها ثمر سموها كذابًا لكونها تكذب عليهم فى الإتيان بالثمر، مع أنها فى الحقيقة هى المثمرة، لأنها أب للحب الذى يتكون على جوانب الكوز فكيف ينكر.

ومن المجرب أنه إذا قطع ذلك الكذاب قبل تمام تربية الكوز لا يكون كما ينبغى، وذلك لانقطاع إمداده، فما أعجب هذا النظام فكأن كل أسفل يستمد من الأعلى كما تستمد الأرض من السماء وجميع الحيوان والنبات من السماء، والأنثى من الذكر من كل صنف فهى حكمة سارية فى جميع الموجودات، ولذلك لما كان الخروع أنثاه أعلى وذكره أسفل اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن يدلى فروع الإناث حتى تصير أسفل ليسهل بينهما الوصال جريًا على ذلك المنوال.

أما التلقيح بالحشرات كالنحل وغيره فقد شرحته آنفًا.

وها أنا الآن أذكر نكته لطيفة تقدمت الإشارة إليها وهى أن الزهر الذى تلقحه تلك الحشرات الضعيفة لوّن بالألوان الجميلة ليطير شوقًا إليها من بعد كما عرفت آنفًا، فهذه من حكم جماله كجمال بنى آدم، فإن حكمته أن يثير شوق كل من الزوجين إلى الآخر.

أما الزهر الذى استغنى عن تلك الحشرات فقد حرم الجمال لحصول التلقيح بالهواء مثلاً أو الإنسان أو بالماء ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾[1] وقال وهو أصدق القائلين ﴿ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴾[2].

---

(١) الآية ٨٨ من سورة « النمل ».

(٢) الآية ١٧ من سورة « المؤمنون ».

فقالت يا سيدى ذكرت جمال بنى آدم ومعلوم أن الزوجين سيان فى حب النسل، فلم أعطيت المرأة من الجمال أكثر مما أعطى الرجل، وعكس ذلك فى أنواع الدجاج ففى الديك من الجمال ما ليس فى الدجاجة فقال إن النساء أشد من الرجال . . (١) . . . والديك أكثر شبقًا من أنثاه وأشد شهوة فأعطيت المرأة الجمال وحسن القوام لتجتذب قلوب الرجال والمرأة لما توفرت فيها داعية . . (٢) لم تحتج مع ذلك إلى كبير جمال فى الرجال، وعكس ذلك فى الدجاج، ثم غلب عليها الحياء وتصببت عرقًا فتغاضى هو وصمت.

ثم قال بعد هنية : يا سيدة العقائل الأماجد وربيبة الشرف هذا موضوع علمى لا بد من البحث فيه والخوض فى أقاصيه وأدانيه إذ نحن بصدد ذكر عجائب الصنعة الإلهية، وقد قيل تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة، وقال عليه الصلاة والسلام : « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى ذات الله »(٣) كما رواه فى الإحياء(٤).

وإذا أعرض الإنسان عن التفكر واتبع هواه واستغرق فى لذاته وشهواته هوى فى بحر عميق وضل فى بر شاسع وينشد إذ ذاك :

لقد ضاع عمرُ ساعةٍ فيه نشترى — بملءِ السمـا والأرضِ أية ضيعةِ
فيـا درة بينَ المزابل أُلقيت — وجوهرة بيعتْ بأبخس قيمة
أفانٍ بباقٍ تشتريه سفاهـةً — وسُخطًا برضوانٍ ونارًا بجنة(٥)

(١) بياض فى الأصل والمعنى معلوم وانظر إلى ما بعده.
(٢) انظر التعليقة السابقة.
(٣) إذ كل ما يخطر على بال الإنسان فالله تعالى بخلافه فالعقل له الحد الذى لا يستطيع تجاوزه.
(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.
(٥) وفى مثل هذا التركيب فالباء تدخل على المتروك.

فمن فتح الله عين بصيرته فليستغرق أوقات فراغه في التفكر والنظر في عجائب صنع الله، كما أرشد الله إليه في كثير من مواضع القرآن منها قوله ﴿ **ومن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾(١).

وههنا نكتة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم وهو أن أعظم اللذات المحسوسة ناشئة من التقاء الختانين(٢) وتضام الزوجين، ومن المعلوم أن النفس تحب الترقي في اللذات إلى ما لا يتناهى، فأما نفس الغبي فقد انتهت لذتها إلى هذه النقطة ولم تتجاوزها، وأما العالم العارف فإن نفسه تأخذ في الترقي إلى ذلك الجمال الأسنى والبهاء والنور، فيجد هناك من اللذة ما لا يتصوره الجاهل.

لا يعرف الشوقَ إلا من يكابدُه ولا الصبابةَ إلا من يُعانيها

وقد قيل من ذاق عَرف وإن شئت فتأملي الآية وتعقيب الزوجين بالفرار إلى الله(٣) ثم قارني هذا بما قدمنا في حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها وقولها: أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل الخ الحديث، وبما في حديث آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة».

فليفهم أهل المعرفة وليتفكر في ذلك أهل الذوق، وهذه المقارنة لم أعثر عليها في كتاب وقال الله تعالى ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** ﴾(٤) فالأمل ممدود والعمر محدود ولا ممدود(٥).

---

(١) الآيتان ٤٩، ٥٠ من سورة الذاريات.

(٢) وهو الفيصل في وجوب الغسل على الرجل والمرأة.

(٣) ﴿ . . . * **ففروا إلى الله** ﴾.

(٤) الآية ١٨٥ من سورة «الأعراف».

(٥) والأجل يقطع الأمل.

وليس المراد من النظر تحديق الحدقة نحو زرقة السماء وغبرة الأرض .

فمن لم يرَ من السماء إلا زرقتها، ومن الأرض إلا غبرتها، فهو مشارك للبهائم في ذلك وأدنى حالاً منها .

قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾(١) .

قال في الإحياء : سئل ابن المبارك من الناس .

قال العلماء :

قيل فمن الملوك قال الزهاد .

قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون الدنيا بالدين .

ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي بها يتميز الناس عن سائر البهائم هو العلم .

فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا لعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا لشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا بجماعه فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه .

بل لم يخلق إلا للعلم .

ما الفضلُ إلا لأهلِ العلمِ إنهم … على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وقَدْرُ كلِّ امرئٍ ما كان يحسنُه … والجاهلون لأهلِ العلمِ أعداءُ

ففزْ بعلمٍ تعِشْ حَيًّا به أبدًا … فالناسُ موتى وأهلُ العلمِ أحياءُ

* * *

(١) الآية ١٧٩ من سورة « الأعراف » .

الفصل التاسع
(فى بيان أن التفكر فى المصنوعات أعلى اللذات)
(وفيه ذكر حكمة الجمال وفكاهات أدبية)

ثم قال : اعلمى أن المراد بالنظر التفكر فى المعقولات والنظر فى المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها؛ ليظهر له حقائقها، فإنها سبب اللذات الدنيوية والسعادة الأخروية؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « أرنى الأشياء كما هى » وكلما أمعن النظر فيها ازداد هداية، ومن لم يكن له حظ من هذا النظر فهو فى حضيض الجهل وليس له لذة حقيقية يعول عليها فى هذه الدنيا بل مثله كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والغلمان، وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها، فأما حال القصر والملك الذى فيه فهى بمعزل عنه، وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره.

وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضًا عن سكانه.

فالجاهل المغرور الذى قصر نفسه على مأكله كما تأكل الانعام وملبسه ولوازم معيشته، غفل عن الله عز وجل وبيته وسقفه، فلا يعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف المنزل، نعم ليس للنملة سبيل إلى أن تعرف البيت وسقفه وسكانه وعجائبه وبدائعه لقصور نظرها.

وأما الإنسان فله قدرة على أن يجول فى هذه العجائب ويعرف ما الخلق غافلون عنه.

قالت قد قلت إنه ليس لمن حرم هذا النظر لذة حقيقية، وكيف هذا مع أننا

نرى الأغنياء فرحين بأموالهم، والصناع بمصنوعاتهم، والتجار بتجاراتهم ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾(١) ونرى كلاً يدعى أنه هو الذى حيزت له الدنيا بحذافيرها .

فقال لها إبراهيم : اعلمى أن اللذات لا نهاية لها ولا مطمع فى استقصائها، والعالم المطلع على هذه العجائب الناظر فيها يرى كل من ذكرته من هؤلاء كالصبيان، حيث يفرحون بالكرة والصولجان، وعندهم اللعب خير من الملك والثروة، فكما أن الرجل العاقل يرى الصبيان فى غاية النقص بالنسبة له ويتعجب من فرحهم باللعب وغفلتهم عن لذة النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، كذلك العلماء الناظرون فى تلك العجائب يرون لذة لا يتصورها من ذكرته من الأغنياء والتجار والحكام والملوك ويعدون من عداهم صبيانًا ناقصين .

ولأضرب لك مثلاً : لو أن خنفساء ذكرًا عشق محاسن أنثاه وطفق يتأمل فيها وجمالها عنده، وسئل عن رأيه فيها لقال إن جمالها أعلى جمال، وبهاءها أعظم بهاء، ولو قيل له انظر غادة من حسان الإنسان فإنها أبهى وجمالها أعلى بل لا نسبة بين خنفسائك وأدنى امرأة من نوع الإنسان لأنكر ذلك أشد الإنكار وما ذلك إلا لجهله بالحسان من بنى آدم، أما لو عرفهن وما أفرغ عليهن من الجمال والحسن لأنكر جمال خنفسائه وترك مذهبه القديم، ونبذ الخنافس، ولازم الطنافس، لينظر إلى الحسان من نوع الإنسان .

وكأن إبراهيم قصد بهذه المحادثة الأخيرة أن يحول فكرها عن الدهشة التى استولت عليها من شدة الحياء(٢)، فاستأنست ورجعت للبحث معه .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة « الروم » .

(٢) لما تكلم عن نواح جنسيه ولو أنه جاء عند المحك فلم يذكر الكلمة .

فقالت يا سيدى : كأن جمال الحيوان والإنسان وزينة الأزهار لم تخلق لمجرد اللهو بل خلقت لحكم عظيمة، وكأن القادر الحكيم ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ** ﴾[١] عامل نوع الإنسان والحيوان معاملة الرجل العاقل للطفل، فكما أن الرجل العاقل يدخل السرور على ولده بأنواع الملاذ من الفاكهة والحلوى والملابس المنقوشة المزخرفة وكثرة اللعب؛ ليرغبه فى التعلم وملازمة الدرس والآداب، لا ليقصر نظره على لهو الصبيان ولعبهم، بل أراد أمرًا أعلى وهو ملازمة العلم والدرس، فهكذا الخالق عز وجل وضع هذا الجمال، ومن بعض حكمه أنه يكون وسيلة لالتقاء الختانين وهو وسيلة إلى النسل وبقاء النوع.

فكما أن الطفل يفرح بالكرة التى أعطاها له أبوه، كذلك الإنسان يفرح بذلك الجمال ويلتذ بالملامسة، وكما أن القصدر عند والده ملازمة الدروس والآداب، كذلك أراد الله من الزوجين التناسل لبقاء النوع لبقاء ملكه إلى الوقت الذى أراده وقدره؛ فالتناسل مقصود بالأصالة واللذة مقصودة بالتبع، بل هى وسيلة لم يؤت بها إلا للنتيجة، ولذلك ترى الفحل[٢] لا يقرب من أنثاه وهى لا تشتهيه إلا وقت إرادة الحمل ومتى حملت حملاً خفيفًا أبت الاقتراب منه، كما أنه يأنف منها أيضًا، وهذا من العجائب الدالة على إحكام الله سبحانه وتعالى لصنعته.

ولكن يا يسيدى كيف تخلفت هذه الحكمة فى الإنسان فإن الشوق بين الزوجين لا يزال ينمو، فإذا كان التقاء الختانين لمجرد التناسل كما فى الحيوان فلم دام فى الإنسان[٣] بعد الحمل.

فقال : نعم إن الذكر والأنثى فى الحيوان ليس بينهما علاقة منزلية، ولا يحتاج أحدهما إلى الاخر، بخلاف الإنسان؛ فالرجل محتاج إليها لتدبير منزله وإرضاع

---

(١) الآية ٦٠ من سورة النحل.

(٢) أى غالب أصناف الحيوان غير الإنسان.

(٣) أى الوقاع.

أولاده، وهى محتاجة إليه فى الإنفاق فجعل اللطيف الخبير ذلك السر بينهما لتدوم الألفة ولا يضعف حبل العهد بالحمل.

ثم أحس إبراهيم بملل وسآمة من طول هذا الموضوع والكلام فيه فقال: هل لك فى الفكاهات الأدبية والأحاديث المستملحة عند الأقدمين قالت: من فيك[١] أحلى فقال:—

قرأت فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ما معناه: أن أعرابيًا دخل على زوجته يومًا فوجدها ولدت ابنة وكانت العرب تكره البنات، فخرج من عندها مغضبًا لا يلوى عليها ولا على ابنتها، وبقى عند جيرانها شهرًا حتى مرَّ يومًا من الأيام عليها وهى ترقصها وتغنى بهذه الأبيات:

ما لأبى حمزةَ لا يأتينا يظلُّ فى البيت الذى يلينا

غضبانُ ألا نلد البنينَا تالله ما ذلك فى أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرضِ لزارعينا

نُنبت ما قد زرعوه فينا[٢]

فلما سمع هذا القول عطف عليها وعلى ابنتها وقبل رأسهما وعاش أحسن مما كان معهما، واعتذر عما فرط منه.

فتبسمت الفتاة حين سمعت هذه الحكاية.

ثم سألها سؤالاً حقيقيًا فى صورة الممازح فقال: ما السبب فى طول أذن الحمار وقصر إذن الفرس مع صغر حجم الأول بالنسبة للثانى؟

فقالت: لأن الفرس قوى حاسة الإدراك سريع التأثر، بخلاف الحمار فكان

(١) الفم مضاف إلى الضمير.

(٢) وقد ثبت حديثا أن النوع يأتى من الذكران لا من النساء.

طول أذن الحمار ليجمع الهواء بكثرة ويدخله فى الصماخ فيسمع النداء، بخلاف الفرس فيكفيه قليل من الهواء لسرعة بديهته .

ثم قالت : ومن العجب أن الحيوان لما لم يعط الفهم والتفاهم (ومعلوم أن الأوامر إنما يعرفها المأمور بحاسة السمع) جعلت أذنه الظاهرة نائبة عن الحاسة الباطنة فربط فيها الحبل ليجره الإنسان بالحبل المحسوس فى الأذن المشاهدة، كما يُجَر الإنسان بحبل معنوى وهو معانى الكلام فى الأذن الباطنية، ولذلك ترى العامة يقولون يربط الإنسان بالأقوال لا بالأحبال .

وأخذا يتناشدان الأشعار والمُلح واللطايف ثم رجعا إلى البحث فى عجائب الحيوان والنبات ثانيًا قالت :

* * *

الفصل العاشر

(فى دودة الحرير وحكمة قلته وتحريمه على الرجال)

(وما يتبع ذلك من فوائد مهمة)

. . . إن النحل وعجائبه أذكرنى الدودة التى تُخرج الحرير، فإن ملابس الحرير أبهج منظرًا وأغلى قيمة وأنعم ملمسًا، فهى جمال المخدَّرات[١] المصونات، كما أن شهد النحل تضرب به الأمثال فى الحلاوة، ويا ليت شعرى كيف كان ألذ المطعومات وأشفاها يخرج للإنسان من حشرة ضعيفة، وأغلى الملابس وأبهجها من دودة حقيرة[٢] .

---

(١) أى النساء المخدرات استغنى عن الموصوف بالصفة والمخدرة من النساء المستترة عن عيون الأجانب .

(٢) وذلك لهوان الدنيا على الله فالذ المطاعم وأطيب الملابس إنما هى من حشرتين ضعيفتين.

ولقد سمعت أن هذه الدودة اكتشفتها امرأة ملك من ملوك الصين قديمًا فقد رأتها تخرج خيطًا متينًا طوله يزيد على ألف متر، وتلفه عليها حتى تصير داخله فى مدة لا تتجاوز أربعة أيام، فصنعت من تلك الخيوط لها ثوبًا فأعجب به الملك، ثم صاروا يستخرجون الحرير بواسطتها، وحظروا أن يطلع عليه من سواهم من الأمم الأخرى كعادتهم فى جميع صنائعهم، حتى احتال قسيسان يونانيان على أخذه حيث وضعا بيضه[١] فى عصا مجوفة خيفة من عيون الصينيين الذين كانوا لايدعون غريبًا يأخذ من بلادهم شيئًا، وذلك كان فى نحو سنة خمسمائة وخمس وخمسين بعد الميلاد، ثم انتشر بأنحاء البسيطة.

وذكر صاحب دائرة المعارف هذه الرواية، وقال أيضًا: إن أهل قوص بالبلاد المصرية كانوا يعرفون صنعته قبل التاريخ المتقدم بقرون.

هذا وإنى سنح[٢] لى سؤال أفتأذن لى أن أبديه.

فقال: هاتِ فقالت: إن الله عز وجل جعل ملابس الإنسان مختلفة فبعضها من النبات كالقطن والكتان وبعضها من الحيوان كالصوف والحرير[٣] فلم كان غالب الملابس الحيوانية أمتن وأجمل من الملابس النباتية، ولما قل نوع الحرير عما سواه فغلا ثمنه.

فقال: اعلمى ألهمك الله أنوار العلوم والمعارف أن جميع هذا الكون محكم الوضع عند من أوتى الحكمة وانفتحت عين بصيرته، ومن ذلك أن اللطيف الخبير دبر الحيوان بإتقان عجيب وجعله أشرف من النبات، لأن النبات غذاء له، فهو لا جرم أتم تركيبًا وأحكم إتقانًا، ولذلك كانت نواتجه أجمل وأبهج من نواتج النبات، وحسبنا شاهدًا على ذلك ضوء الشمع ونور البترول مثلا فإن بينهما بونًا عظيمًا

---

(١) أى بيض دود الحرير.

(٢) سنح سنوحا: عرض.

(٣) ويستخرجون من مواد أخرى ملابس للإنسان.

وفرقًا كبيرًا من حيث الإشراق والإضاءة والحسن، وما ذلك إلا لكون الأولى نتيجة حيوان والثانى خارج من الأرض لم تكتنفه شروط وآلات كالأول .

هذا وقد جعل الله كل شىء فى هذا الملك على حسب المصلحة فأكثر من الضروريات والحاجيات، وأقل من الكماليات .

كنوع القطن والكتان فإنهما يحتاج إليهما الخاص والعام فأكثر منهما رحمة بعباده وفضلاً منه .

أما الحرير فإنه لما كان من الكماليات خصصه بذلك الحيوان الضعيف ليقل حتى لا يستعمله إلا أهل الترف والنعيم .

ومعلوم أن فيه خنوثة لا تليق بالرجال، فلو كثر لاتخذوه ملابس ولعم الترف وتعطلت أغلب الصنائع أو كادت .

قال الله عز وجل ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾(١) .

وانظرى إلى هذا الإتقان فى الصنع مع ما جاء فى الشريعة المطهرة من حظر استعمال الحرير على الرجال وتحريمه عليهم .

فقد تطابق الوضع الإلهى فى خليقته مع ما صرح به فى أوامر شريعته .

﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾(٢) .

فليبتهج بتلك الحقائق العالمون، وليجزل(٣) بها المتفكرون .

* * *

(١) الآية ٢١ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٥٤ من سورة « الأعراف » .

(٣) ليزداد بها المتفكرون علما .

الفصل الحادى عشر

(فى أن الشىء كلما كثر الاحتياج إليه كثر وجوده فى الكون)

(وبقدر قلة الاحتياج إليه يقل وجوده)

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾(١) .

فقالت يا سيدى قد أنعشت قلبى بأنوار علومك وجميل أدبك وبديع أفكارك ، فزدنا مما خطر بخاطرك من الحِكَم التى تناسب ما تقدم من الوضع الإلهى وترتيب الأكوان فلقد شاقنى حسن هذا الحديث من حكمة الحرير .

فقال اعلمى يا ذات المجد والأدب أنى كنت يومًا فى بعض المزارع ببلاد مصر مشغوفًا بالتفكر فى عجائب الرحمن وصنائعه الجميلة ، فلاح لى معان رقيقة فى خلال سطور الكائنات ، قبل أن أدرس العلوم الطبيعية والعقلية ، فأحب أن أذكرها لك إجابة لملتمسك : إن لله عز وجل تدبيرًا عجيبًا ، حيث أكثر من الهواء الذى يحيط بنا فيجعله فوقنا وأمامنا وخلفنا ، ولم يحوجنا جل وعلا فى تحصيله إلى مؤنة ، وذلك لشدة احتياجنا إليه للتنفس منه ولبقاء الحيوان والنبات ، فإنه لو انقطع لحظة واحدة لفنى ذلك كله فإن جميع ما ذكر يتنفس منه فى كل آن(٢) فكما أن الإنسان والحيوان يجذبان النفس إلى داخل بالشهيق وبتنفس الجلد ، كذلك النبات يتنفس بأوراقه فيخرج الضار ويجلب النافع .

واحتياجنا إلى الماء أقل فإن الإنسان والحيوان يعيشان بدونه ساعات كثيرة بل أيامًا ، ولا يصبران عن الهواء ، ولذلك جُعل أقل من الهواء على حسب الحكمة ، واحتجنا فى بعض الأوقات إلى استعمال الآلات فى إحضاره وقد سهلها الله سبحانه وتعالى .

---

(١) الآية ٢١ من سورة « الحجر » .

(٢) حتى والإنسان نائم يتنفس طبيعيا بدون تدخل من الإرادة .

ويلى ذلك الحبوب ثم الفواكه المختلفة طعمًا وغيره .

وكذلك النظر فى المعادن كالحديد الذى لولاه لم تتم صنعة من الصنائع، فكل آلة من آلاتها له دخل فيها كإبرة الخياط وقدُّوم النجار، ومحراث الزراع، بل لولاه ما صلح جسم الإنسان بالدم لأن فيه جزءاً[١] منه وهو الذى يلونه بلون الحمرة ويقوى جسم الحى ولكثرة منافعه وعمومها ذكره الله عز وجل فقال ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾[٢] وسميت السورة باسمه إيماء لكثرة منافعه، كما سميت سورة النحل لما تقدم من دلالته على بارئ الكائنات بعجائبه وغرائبه[٣].

وكالنحاس فإن كثرته فى العالم على حسب المصالح والمنافع ولذلك قلَّت الفضة والذهب فإنهما لتقدير قيمَ الأشياء والزينة، ولا جرم أن قلهما من أجَلِّ النعم وأدقها، حتى يكثر قيمة ما قلَّ منهما، فربما وزن بالدرهم أرطال من الفواكه والمطعومات، وبمثقال من الذهب يشترى كثير من المطاعم والملابس، ومعلوم أن الزينة ليست مقصودة لذاتها وإنما هى من الكماليات كحسن المنظر وبهجته، فلو كثر الذهب والفضة لتعسر التعامل بهما لرخص قيمتهاوصارا كغيرهما وكثرت بهما الزينة، وولع الناس بحسن المناظر وتركوا الحاجيات، فلم يكترثوا بها وفسد النظام واعتراه الاختلال .

ثم لننظر الى العقيق والألماس ونحوهما، فإنها أبهج وأنضر وأندر وجوداً من غيرها فغلا ثمنها، وقل حاملوها والمتحلون بها والمتحليات، وكأن الله عز وجل دلنا بهذا التدبير المحكم على أن هذا الملك لم يقصد للظواهر، كحسن المناظر، وإنما خلق للمنافع والخير المحض، وكأن تلك المحاسن من مكملاته ومتمماته، فلو اتسع نطاقها

(١) كذلك به أجزاء من معادن أخرى فسبحان من خلق أصل الإنسان من طين .

(٢) الآية ٢٥ من سورة « الحديد » .

(٣) ولغرائب حشرة النمل سميت أيضا سورة باسمه .

وكثر وجودها لانعكست القضية(١) وصارت المقدمة نتيجة والوسيلة مطلبًا والفرع أصلاً فيا عجبًا لهذا الإحكام ويا ليت شعرى كأن ذلك الجمال الظاهر نطق بلسان حاله معربًا عن جمال بارئه، فإن كل ما فى هذا الكون من الكمال والمحاسن من آثار جماله ورشحات تترشح من ذلك الجمال والنور الأعلى ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾(٢) ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾(٣) ويعجبنى قول الشاعر العربى مخاطبًا لفتاة قد شغف بحبها :

أوحشية العينين(٤) أين لك الأهل
أبالحَزْن(٥) حلوا أم محلهم السهل
قفى خبرينا ما طعمت وما الذى
شربت ومن أين استقل بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فإننى
أراك من الفردوس إن فتش الأصل
فإن علامات الجنان مبينة
عليك وإن الشكل يشبهه الشكل

وفى هذا بارقة من بوارق العلوم العالية يرتاح إليها ذو الفكر الثاقب

---

(١) والقضية المنطقية هى قول مكون من موضوع ومحمول يحتمل الصدق والكذب لذاته ويصح أن يكون موضوعا للبرهنة مثل المسلمون مخلصون ومحمد مسلم إذن محمد مخلص.

(٢) الآية ٣٥ من سورة «النور». (٣) الآية ١٤ من سورة «المؤمنون».

(٤) ذات عيون واسعة جميلة تشبه عيون البقر الوحشى.

(٥) الحزن الأرض الصعبة.

(حكم عجيبة وبدائع غريبة)

ثم قالت جمال : ما أعجب حكم مبدع هذا الكون، وما أغرب نظامه، لقد أذكرتنى ما رأيته فى بعض الكتب .

إن أعظم المنافع وأعلاها وأجلها وأغلاها يخرج من أصغر الحيوان قدراً وأصغره جسمًا، فهذا الديباج(١) الناعم من دودة صغيرة حقيرة .

وأحلى المطعومات وألذها وهو العسل من تلك الحشرة الصغيرة المعربة عن قدرة باهرة وحكمة تامة ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ** ﴾(٢) فلله ما أجل ما صنع وأبدع وأحكم ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾(٣) .

وأجمل الزينة وأبهاها وأغلاها وهو الدر الذى ترصع به تيجان الملوك وتتحلى به أجياد الغوانى، من أحقر حيوانات البحر، وذلك أن الحكيم جلت قدرته وتقدست ذاته خلق فى البحر حيوانًا وهو الصدف ويسميه العامة (محاراً) وهو عبارة عن قطعة من اللحم عليها غطاء خشن من الخارج ناعم من الداخل وله فم يطبقه لئلا يدخله ماء البحر الملح فيفسده، وهيئة غطائه كهيئة كفى الإنسان عند انطباقهما وهما متجافيان، ونحن نشاهد نظيره كثيراً فى البحر الحلو .

وهذا الحيوان يسكن أعماق البحر الملح ويتربص سكونه من الاضطراب والهيجان فى أوقات من الليل ويعلو شيئًا فشيئًا حتى إذا لامس سطح الماء بغاية التؤدة والسكون والانتظام، فتح فاه متعرضًا لرحمة ربه من الندى والطل، وما يمازجه من العناصر الجوية مما ينزل على أوراق الشجر والزرع؛ فينزل فى جوفه ما

---

(١) الديباج ما كان سداه (الخيوط الطولية) ولحمته (الخطوط العرضية) من الحرير الخالص والكلمة فارسية معربة .

(٢) الآية ١١٥ من سورة « الأنعام »، ١٣٧ من سورة « الأعراف »، ١١٩ من سورة « هود عليه السلام » .

(٣) الآية ٦ من سورة « آل عمران » .

قدر له ثم يطبق فمه وينزل بنظام ويتحفظ من وصول شيء من ماء البحر فى جوفه لئلا يفسده، ثم يبقى ساكنًا فى عمقه ويتدحرج ذلك فى جوفه بحركته كما يتدحرج الزئبق، فيكون حبات صغيرة ولا يزال كذلك حتى يصير ما أخذه من الجو درًّا صغيرًا وكبيرًا ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾(١) انتهى بالمعنى والإيضاح .

فتأمل فى هذا الجمال البارع والنور الساطع كيف ظهر باسم الدر والجوهر، كبواسم الثغور(٢) من أدنى حيوان البحر الذى ليس له إلا حساسة وهى اللمس، وبهذا صار أول سلسلة الحيوان مما يلى النبات، إذ حيوانات البحر مقدمة طبعًا على حيوانات البر لتقدم الماء على التراب، كما أوضحه العلماء والحكماء فى شرح دائرة الوجود التى تنظم العالم كله فى ترتيب واحد .

ومنها ملاصقة القرد للإنسان التى طار بها داروين فرحًا لقلة اطلاعه على العلوم وظن الغربيون والأغرار من الشرقيين أنه علم علمًا لم يُسبق به وإنما هى كلمة لم يقف فيها على حقيقة وترك بقية السلسلة والعلم(٣) .

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول :

فأجمل الزينة من أحقر حيوان البحر، وأبهى الملابس وأنعمها من أحقر الحيوانات البرية وهى الدودة(٤) وأحلى المطعومات وألذها من أحقر الطيور وهو النحل(٥) .

فانظر هذا التقسيم العجيب كما أن المدنية الحاضرة إنما جاءت من قطعة

---

(١) الآية ١٤ من سورة « المؤمنون » .

(٢) من إضافة الصفة إلى الموصوف وأصلها الثغور الباسمة .

(٣) وقد ثبت افتراء وكذب تلك النظرية العاهرة التى حاولت أن تقضى على كل المعتقدات الإلهية وظهر زيفها وكفر القائل بها .

(٤) بل هى حشرة ضعيفة .

(٥) ويصنف أيضا كنوع من أنواع الحشرات .

زجاج للنظارات والاستكشافات، وقطعة فحم للتبخير، وقطعة حديد، فانظر كيف كان الرمل (داخل فى الزجاج) والحديد والفحم عليهما مدار المدنية[١] كما كان تلك الثلاثة عليها الزينة والبهجة هو الله ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ** ﴾[٢].

فيا ليت شعرى كيف نفهم معنى هذه الآية وأنه أحسن كل شىء خلقه إذا لم ننظر هذا المنظر وكيف اشتق هذا الإنسان العجيب من الطين، وكيف جعل الماء ينزل على اليابسة فيكون نباتًا وفى البحر فيكون جوهرًا ودرًّا ا.هـ[٣]

* * *

الفصل الثانى عشر
(فى الكلام على حكمة الله عز وجل فى الحيوان المسمى)
(سرباس وأرس وهيئة الأسماك وعجائبها)
(ووضع السفن على منوالها)

ثم قالت الفتاة يا سيدى قد قرأت فى كتاب عجائب المخلوقات للإمام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزوينى رحمه الله أن الله عز وجل خلق حيوانًا يسمى سرباس يوجد فى بلاد بلوخستان فى قصبة أنفه اثنتا عشرة ثقبة فإذا تنفس سمع له صوت موسيقى حسن يطرب الحيوانات فتجتمع فيصيد منها ما يشتهيه، فإذا ضجر من انكبابها عليه واجتماعها حوله صاح فيها صيحة هائلة فتفرقت عنه، وقد قيل إن المزمار وضع على شكل قصبة أنف ذلك الحيوان.

---

(١) والآن البترول أخذ حظا عظيما من حظوظ الفحم. (٢) الآية ٧ من سورة « السجدة ».

(٣) ومن هنا كان الواجب أن نبحث عن خلق الله وأقرب شىء لنا أنفسنا ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ ولذلك كان الطبيب المؤمن هو أقرب الخلق فى معرفة القدرة الإلهية.

وإن فى أقصى بلاد الروم حيوانًا يقال له أرس له قرن وعليه اثنتان وأربعون شعبة مجوفة، فإذا هبت الريح يجتمع الهواء فيها فيسمع منه صوت فى غاية الحسن فتجتمع الحيوانات عنده لسماعه .

وقد ذكروا أن بعض الملوك أُهدى إليه قرن منها فترك بين يديه عند هبوب الريح فخرج منه صوت مطرب عجيب حتى كاد يدهش الألباب من سماعه طربًا ثم وضعوه منكوسًا فكان يخرج منه صوت محزن حتى يكاد يغلب على الإنسان عند سماعه البكاء، فهل عندك من علم بهذين الحيوانين فى المكتشفات الحديثة .

فقال لها : يا سيدتى إنى ما عثرت على ذكرهما فى المؤلفات الجديدة ولعلهما فيما لم أطلع عليه أو أنهما قد انقرضا فى الأزمان الغابرة .

وأما جعل المزمار على شاكلة قصبة سرباس فهذا ليس بدعًا فى أفعاله تعالى فإن أدق الصنائع وأعمها فائدة ما اكتسبه بنو آدم وتعلموه إلا من الصنعة الإلهية ألا ترين إلى السفن المواخر فى البحر كالأعلام فإنها وضعت على مثال السمك فقالت وكيف ذلك؟

فقال إبراهيم : اعلمى نورك الله بنور العلم أن الخالق جل اسمه جعل تركيب الأسماك مناسبًا للمعيشة فى الماء، كما جعل للطيور أجنحة تساعدها على الطيران فى الهواء .

فقالت : وكيف ذلك؟

فقال : إن الأسماك تحتاج فى تصرفها فى معاشها وتقلبها فى أطوارها إلى أن تعوم فى الماء من جهة إلى أخرى أو تنخفض تارة وترتفع أخرى، أو تتجه يمينًا ويسارًا لتبحث عن غذائها، أو تهرب من عدوها، أو تطلب صيدها، فجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاذيف السفينة تشاهد فى الأسماك فى الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها، وحوصلة تسمى حوصلة العوم وهى عبارة عن كيس مملوء

هواءً خالصًا تضغطه إذا أرادت أن تغوص فى الماء فيصغر حجمها، وتمدده إذا أرادت أن تطفو على سطحه فيكبر حجمها، وجعل ذنبها مستعدًا لأن يديرها يمينًا وشمالاً فى البحر، فكما أن للسمكة عوامات تمخر بها الماء، كذلك جعل للسفينة مجاذيف وشرعًا تسيرها حيثما أراد الإنسان، وكما أن لها ذنبًا يكون موازنًا لجسمها عند الانحراف يمينًا وشمالاً، كذلك جعلت الدفة للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنة ويسرة، فلو انقطع ذنب السمكة مثلاً ما أمكنها أن تنحرف إلى إحدى الجهتين بل تتجه دائمًا جهة الأمام ولو انعدمت عواماتها التى فى جوانبها وعلى ظهرها لوقفت فى مكان واحد، وتعطلت عن اكتساب معيشتها.

ومن العجيب أن الأسماك جعل شكلها على هيئة تناسب اختراق الماء فلم تجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجج المياه فتعوقها عن السباحة، فما أدق صنعته سبحانه وما أعم رحمته، وكل حى يغدو ويروح فى بحار نعمه مشمولاً بسوابغها قال عز وجل ﴿ **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴾[١].

فعجائب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلذاتهم وشهواتهم. قال عليه الصلاة والسلام: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض» فالإبل مثلاً قصرت أذنابها لاستغنائها بطول أعناقها، وعكس ذلك فى البقر، وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحًا ليراجعها محب الحكمة فى العلوم الطبيعية ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[٢].

* * *

(١) الآية ١٧ من سورة «المؤمنون».

(٢) الآية ٤٦ من سورة «النور».

الفصل الثالث عشر
(فى حكمة خلق الحشرات)

فقالت يا سيدى : إنى اعتقد أن كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحار فيها العقول، ولكن إلى الآن لم أصل إلى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنابير والذباب والبعوض، فهل عثرت على ذلك فى كتاب .

قال نعم إن الله عز وجل يخلق الشىء لحكم كثيرة منها ما يعرف ومنها ما لا يعرف أما هذه الحشرات كالزنابير والذباب وغيرها فإن حكمها كثيرة منها أن العفونات الفاسدة التى على وجه الأرض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر الهلاك وعم الخراب، فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لحمها ولا يعرض لها الفساد الذى هو سبب الوباء وهلاك الحيوان، ولذلك ترين الزنابير والديدان والخنافس فى دكان القصاب (الجزار) والدباس[1] أكثر مما يرى فى دكان البزاز (القماش) والحداد، فاقتضت الحكمة الإلهية صرف العفونات إليها، ليصفو الهواء منها، ونسلم من الوباء .

ومن الحكم العجيبة والأسرار الطبيعية الإلهية أنك ترين أن نحو الحيات والعقارب تسكن عادة وتكثر فى الأماكن العتيقة والمحال الفاسدة، وهكذا خشاش الأرض من الخنافس والصراصير وغيرها وترين البعوض الذى تسميه العامة (الناموس) لا يتولد إلا فى المحال المستنقعة وكذا الذباب يكثر فى المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلاً عن كونها تحيل إلى جسمها المواد الفاسدة وتنقى الهواء، فهى من جهة أخرى مؤذية بطبعها ينفر منها

---

(١) الدباس هو صانع الدبس وهو ما يسيل من الرطب من العسل .

الإنسان فتحمله على إزالة ذلك السبب فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول إن لم تصلح هذا المكان أو تخرج منه وإلا لدغتك(١).

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرة لا يحس الإنسان بضرره فيحدث الضرر فى الأجسام أو يميت الإنسان وهو لا يشعر به، جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها سمًّا يحس بألمه الإنسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه، وهو مع ذلك لم يقصد منه إلا البعد عن تلك الأماكن العفنة فضلاً من الله ونعمه.

وهكذا نرى أن من على وجهه قذر يعلوه الذباب لينقى ما عليه، وخلق فى الإنسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر أن يغسل وجهه فيزيل ذلك القذر فكأن الذباب شرطى (جندى) يلازم أهل القذر ويأمرهم بالنظافة، وإلا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة.

فسبحان من أودع فى كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب ما يجهله أكثر الناس وهو نافع لهم، ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات الأمثال(٢) حتى قال ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾(٣) فأنكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(١) ويحكى أن ملكا ظالما وقفت عليه ذبابة فقال للجالسين حوله: لماذا خلق الله الذباب فأجاب أحد الصالحين: ليذل به الجبابرة مثلك، هناك ذبابة نقلت التيفود لجيش ظالم فى حربه فمرض وانهزم ويخلق الله ما يشاء.

(٢) وأصل المثل: جملة من القول مقتطفة من كلام أو مرسلة بذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهه دون تغيير.

(٣) ولا تظن أن خيوط العنكبوت ضعيفة كما كان يظن القدماء ولكنه من أقوى الخيوط إذا قيست بسمكها ولكن الوهن جاء من أن أنثى العنكبوت بعد تلقيحها تقتل الذكر ثم بعد الفقس تقتل كل الذكور ما عدا واحد تتركه لعملية التلقيح فما أوهن مثل هذا البيت والآية ٤١ من سورة «العنكبوت».

فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا . . . ﴾[١] ثم بين أن الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال في آية أخرى ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٢] .

فأفاد بهذه الآية أنه لا يفهم تلك الحكم إلا أصحاب النفوس العالية الشريفة، الناظرين فى ملكوت السموات والأرض، الذين عبر عنهم بالعالِمين بكسر اللام[٣] .

هذا ومن عجيب الحكم أنه عز وجل جعل صغارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلأ وجه الأرض منها، فليس فى ملكه ذرة إلا وفيها من الحكم ما لا يحصى .

وأعجب من هذا أن كل ما جعل سببًا لهلاك حيوان جعل لحمه سببًا لدفع ذلك السم، فإن الاطباء الأقدمين قالوا إن فى لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فأدخلوا لحمها فى الترياق، والتجربة تشهد أن من لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها فى الحال .

ثم إن هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث، ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئًا كالحيات والعقارب، ومنها ما يدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل .

فتأملى تلك الأفعال العجيبة، واعلمى أن هذا العالم كله حكم ومصالح وما يعقلها إلا العالمون، فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة، وظهر لخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة، فإن من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يَدُرْ فى خلده أن لها بعض تلك المنافع والحكم من تلقيح الأشجار وإصفاء الجو من العفونات، فهى من المعينات على مآكلنا وبقاء حياتنا .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة « العنكبوت » .

(٣) جمع عالِم بكسر اللام اسم فاعل من علم .

وإن من أجل الحكم وألطفها وأدقها أكل الحيوانات بعضها بعضا فكم في الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثثها لفسد الهواء، ثم هبت الرياح إلى ما جاورها من البلاد وعم الخراب .

ولذلك قال الشيخ كمال الدين الدميرى في حياة الحيوان الكبرى : إن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الجراد فيأكله، والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها ا.هـ

على أن في ذلك فضلاً عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سُدًى بلا فائدة، فلو ترك بلا أكل لتعطلت حكمته، إذ ليس في الملك ما تضيع حكمته البتة ففيه دفع مضار وجلب منافع .

* * *

الفصل الرابع عشر
(في حكمة أكل الحيوانات بعضها بعضًا)
(وإن في خلاف هذا فساد النظام)

فقالت يا سيدى : فيما ذكرت تبصرة وذكرى للاستدلال على تمام حكمة الصانع القادر، إلا أن ما نشاهده من الآلام التي تعترى الحيوان عند افتراس قويه لضعيفه تقشعر منه الأبدان، وتدع العقل حيران في بيداء الفكر .

فقال لها يا سبحان الله ما خضت في عباب موضوع إلا وأحببت أن تستوفيه فهاك(١) واصغى لما أقول .

---

(١) أى خذى .

اعلمى يا ذكية العقل وربة الفكر أن كافة الحيوان قد ركب الله فيه قوة الإحساس وجعلها شاملة لكافة أجزاء جسمه الظاهرة والباطنة، كما هو موضح فى محله، إلا بعض أعضاء باطنية، وهذه الحاسة أعظم نعمة على الحيوان إذ لولاها ما تباعد عن النيران المحرقة والآلام الموبقة، والموارد والأخطار المحدقة القاتلة، فلم يبال بقطع الرجل وكسر الجناح وفقء العين وذهاب السمع، ولأصبح عاطلاً من كافة آلات الحياة، بل ربما قُضى عليه وهو لا يبدى حراكًا ولا يستطيع فكاكًا، فسبحانه من إله تقدس وتعالى جل جلاله وعز كماله، ولذلك كانت هذه الحاسة أعم من غيرها ألا ترين إلى السمع والبصر والذوق والشم فإن كلاً منها فى موضع يخصه ويناسبه، ولم يعم، بخلاف هذه فإنها عمت الجسم كله وشرحها وتفاصيلها يعلم فى محله من كتب الحكمة[١].

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول: قد علمنا أن الحس فى الحيوان ضرورى لبقائه بحيث لولاه لما بقى له عين ولا أثر، وكما أن تلك الحاسة ضرورية فآجال الحيوان لا بد منها لنظام الكون وعمارة الأرض، إذ لو بقى كل حيوان وُلد لضاقت الأرض فى زمان قليل وتعسرت معايشه، فلننظر إلى نوع واحد منها وهو الإنسان فإنه لو بقى كل مولود من آدم إلى الآن لكان على القدم ألف قدم[٢] وكانت الحياة أشد ألما، فما بالك بغيرة من أمم الحيوانات الأخرى التى تربو عن العدّ والحصر، فلا بد من آجال تنتهى بها حياتها، وتلك الآجال لا يعلمها إلا مدبرها وصانعها، وهو الذى أخفاها عن كل حى منها لتبقى آمالها وتحفظ النظام وعمارة الكون، ثم إن تلك الآجال المقدرة والأعمار المحدودة عند الخالق تعالى إما بهلاك طبيعى أو افتراس أو اقتناص، ولعمرك إنه لا فرق بين أن تختطفه يد المنون وتذيقه أنواع الهون وبين أن يفترسه حيوان فيغذو به وهو شبعان.

ومن لم يمتْ بالسيفِ مات بغيره

تعددت الأسبابُ والموتُ واحدُ

(١) يقصد كتب ما يعرف الآن بعلم طب الأجسام. (٢) بل ملايين الأقدام وما لا يعلمه إلا الله تعالى.

أما الآلام فلا بد منها على كلتا الحالتين، غير أنها في القسرى دفعية وقتية، وفي الطبيعي بطيئة تدريجية، ولعلها في القسرى منعدمة، ألا ترين من كان في حرب فإنه قد يكسر عضوه وهو لا يشعر، ونفاذ المقدور على الأحياء خير من انتظارهم البأساء، وعلى كل حال يغتفر الألم اليسير في جانب ذلك النفع العظيم وأخف الأمرين متبع، فالحكمة تقتضي تقديم أخف الضررين، بل ما خلق في الكون ألم إلا لحكمة باهرة لا يعلقها إلا المتفكرون الذين صرفت أذهانهم عن سفاسف الأمور، بل الآلام والمصائب كثيراً ما تفيد الإنسان كمالات وفضائل تهذبه وتهديه وتبصره، فكم رأينا مريضاً يبث شكواه إلى عدوه ويشرح له مرضه، فكأن المرض صفى نفسه من شوائب الغل والحسد وذلك هو المقصود بجميع الشرائع السماوية، ولأجلها صنفت الكتب ودونت الدواوين.

تأملي في قوله عز وجل حكاية عن سيدنا إبراهيم ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا** ﴾(١) فما أدب هذا التعبير حيث جعل العذاب من الرحمن، وذلك يشير بطرف خفي إلى ما ذكرته.

ولقد رأيت في كتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي أنه ورد في الخبر أن الله تعالى خلق جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة، وفي خبر آخر أن الله تعالى يقول إنما خلقت الخلق ليربحوا عليَّ ولم أخلقهم لأربح عليهم، وقال بعض العارفين والله ما أحب أن يجعل حسابي يوم القيامة لأبوي لأني أعلم أن الله أرحم بي منهما، وفي الحديث (سبقت رحمتي غضبي).

ولقد غفل الناس عن معرفة الحقائق بمتاع قليل ذاهب، فالأعين مفتحة ولكن أين إبصارها، والآذان سليمة ولكن لا تسمع، فقد عميت الأبصار، وصُمَّت

---

(١) الآية ٤٥ من سورة مريم.

الآذان، وغفل الإنسان، وأصبح كل منا فى تيهاء معايشه، حيران لا يدرى ما يبدي وما يعيد، فإن بصر فلفرجه وبطنه وإن سمع فلوساوسه وجهله.

هدانا الله إلى سواء الصراط، وجملنا بحقائق العلوم من المنطوق والمفهوم.

* * *

الفصل الخامس عشر
(فى ذكر الحيوان المسمى هيدار وفى كلام عام على)
(جميع أصناف الحيوان وذكر أصغرها)
(وهى الحيوانات المكرسكوبية)

ثم دخل يومًا مجلس المناظرة هو وإخوتها على حسب العادة فوجدها تقرأ فى كتاب الرسالة الحميدية وراء الستر منشرحة الصدر فارغة البال مظهرة التعجب، فقال: ممَّ تتعجبين؟ فقالت من حيوان يسمى الهيدار صغير جدًّا إذا قطع ثلاث قطع رأسه ووسطه وذنبه وترك بعض أيام صارت كل قطعة حيوانًا تامًّا كأصلها فينبت للرأس وسط وذنب، والذنب وسط ورأس، وللوسط رأس وذنب، والرأس تصير كذلك قبل سواها فمن هذا عجبى.

فقال لها هذا من الدلائل الشاهدة بأن صانع هذا الحيوان لا يحكم عليه فى صنعه ناموس[١] ولا تلجئه ضرورة، وكم فى الحيوان من العجب العجاب تبصرة وذكرى لأُولى الألباب، فمنه ذو الصوت الرخيم والنغم الرقيق، يهيج بحسنه الألباب ويستثير الصبوة، ويستفز الحليم، ويأخذ بالألباب.

فقد أخبرنى حاكم من حكام السودان أن هناك واديًا يقال له وادى الريحان،

(١) الناموس هنا معناه: القانون.

فيه من كل فاكهة زوجان، منظره جميل وليس له فى أشجاره مثيل، قد كثرت فيه الحيوانات البرية والطيور على اختلاف أنواعها، ومنها طير رخيم الصوت كأنه آلة موسيقية كالعود فى غاية الجمال .

قال فأمرت جنديًا أن يأتينى به وكان زوجًا واحداً (ذكراً وأنثى) يتناوبان الغناء فى تلك الرياض الغَنَّاء فأحضر أحدهما ولم يقدر على الآخر، فلما أتى بين يدى ذلك الأمير ترك غناءه وأظهر عناءه والتزم الصمت فى كل وقت حزنًا على الإلف، فبحث العسكر عن أليفه فوجدوه تجرع غصص الموت وفارق الحياة أسفًا وحزنًا، وحين رجعوا وجدوا الثانى رهين رمسه[١] وكانا فى حال حياتهما يتناشدان بأصواتهما الجميلة وهى تحكى العود الصناعى فى حركاته وسكناته، لكنهما أفضل منه وأعلى وأجمل وأبهى، كيف لا وهذا خارج عن شوق طبيعى وروح آنسة بالحبيب مولعة بالطرب، فأين المؤجرة من الثكلى[٢] وأين الثريا من الثرى، وأين الجماد من الحيوان، والفارغ من العاشق الولهان .

ومنه ذو الصوت المنكر الذى يصم الآذان ويصدع الإنسان كصوت الأتان الذى قيل فيه فى القرآن ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾[٣] .

ومن الحيوان الجميل الذى يستوقف الطرف كالزرافة والطاووس وبعض الديكة، وأبدع الجميع جمالا وأحسنه مثالاً الحسان من نوع الإنسان من الحور، فهناك دهشة النظر وحيرة الفكر، والأخذ بمجامع القلوب والسطوة على ألباب ذوى الأحلام، والسلطة على أُبهة الجبابرة والحكام، وكم لهج مداحه بالخدود النواضر والعيون النواعس والملاحة والحور وابتسام الثغر وشنبه[٤] بل فضلوا جماله على جمال العلويات[٥] ذات الأنوار الساطعات بل ربما وسموه بأنه يعلمها كما قيل :

---

(١) الرمس : القبر أى وجدوه ميتًا .

(٢) المؤجرة المرأة التى تؤجر لندب الميت والثكلى المرأة فاقدة الحبيب .

(٣) الآية ١٩ من سورة «لقمان» . (٤) شنب الثغر : رقت أسنانه . (٥) الكواكب العلويات فى السماء .

كـأنَّ ومـيضَ البـرق رامَ تَعَلُّمـا
لمعنى يزينُ الثـغـرَ إذ يتـبـسـمُ
وخـافَ من النسـيـانِ صـار يعيـدُه
مـرارًا وهذا شـأنُ من يتـعلَّمُ

ومن الحيوان ما تقشعر منه الجلود وترجف القلوب، كالثعبان والخنزير، ومنه ما بلغ غاية عظيمة فى الكبر كالفيل الذى علو الكبير منه اثنا عشر قدمًا، ومنه[١] الصغير جدًّا حتى لا يرى إلا بالآلة المعظمة (الميكرسكوب) حتى إن ألوفًا منه تسبح فى قطرة واحدة من الماء دون أن تزدحم أو تتصادم، وهى أجناس وأنواع وصنوف وصور مختلفات، فمنها الحيوانات الفصفورية نسبة إلى الفصفور، لأنها تلمع كلمعانه، فيجتمع خلق كثير منها لا يحصى على وجه البحر، فتلمع وتتوقد كسيل من نار، وكلها لا تنام ليلا ولا نهارًا، ولم ترقط فى حال سكون وبالبحث وجد أن مائة وستين مليونًا[٢] من صغارها لم تبلغ ثقل حبة القمح الواحدة، وأن فى قطرة واحدة من الماء ما يزيد عن كل أهل الأرض من البشر، ثم إن الواحدة منها قد تلد الألوف وألوف الألوف فى زمن قصير، ولها معرفة تامة بموارد معايشها ومصادرها، وميل إلى ما يلائم ونفور عما لا يلائم ونباهة تتقى بها الأخطار ولا يصدم أحدها صاحبه أو يزاحمه، مع أن ألوفًا وملايين تسبح فى قطرة واحدة من الماء كما تقدم، وهى سريعة الحركة جدًّا والغاية فى صغرها ما قيل إن نوعًا منها لاتزيد الواحدة منه على جزء من ألفى جزء من عرض الشعرة، ولكل منها أعضاءٌ خادمة لبقاء حياتها كبقية الحيوان ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[٣].

---

(١) أى من أجناس الحيوان.

(٢) وجد فى الطبعة التى ظهرت من أكثر من مائة عام قوله «هذه المقادير كلها من الرسالة الحميدية فليراجعها من أراد».

(٣) الآية ١٤ من سورة «المؤمنون».

ومن هذا نفهم الظاهرة التى يخبر بها المسافرون فى البحر الأحمر وهى أن أحدهم إذا توضأ ليلاً رأى ذقنه كأنها تتوقداً ناراً وتشتعل لهبًا، وما ذلك إلا لوجود تلك الحيوانات الفصفورية العائمة على وجه الماء، فسبحان من يعلم حركات تلك الحيوانات وسكناتها ومستقرها ومستودعها ومن ألهمها معاشها، وفصل أعضاءها ووظائفها وتناسلها وما لها من هاضمة وماسكة ودافعة وحدقة وسمع، ودبَّر بحكمته اجتماعها وافتراقها، ثم هل فى باطنها حيوانات أدق منها وألطف كما فى باطن الإنسان والحيوان، فَجَلَّ الذى أتقن هذه الصنعة وأحكمها لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فإن مصنوعاته لم تتصل لمعرفة عشر معشار أدنى جزء منها، فكيف بأجزاء، وكيف بالأرض وما عليها من نبات وحيوان وجبال وأنهار، وما بين السماء والأرض من مطر ورعد وبرق وسحاب وصواعق ورياح، وما فى السماء من شموس وأقمار وسيارات وثوابت وذوات أذناب، وغير ذلك مما لا يحصى ومما خفى علينا علمه فانظر كيف أحاط علمه بذلك كله، قال الشاعر:

يرى حركاتِ النمل فى ظُلَم الدُّجَى

ولم يخفَ إعلانٌ عليه وإسرارُ

ويحصى عديدَ النمل والقَطْرِ والحصَى

وما اشتملتْ نجدٌ عليه وأغوارُ[1]

إذا هَمَّ وَهْمُ الفكر إدراكَ ذاته

تعارضَ أوهامٌ عليه وأفكارُ

---

(١) النجد ما ارتفع من الأرض وصلب والغور كل ما انخفض منها وقعر كل شىء هو غور.

وكيف يحيطُ الكيفُ إدراكَ حَدِّه
وليس له فى الكَيْفِ حَدٌّ ومقدارُ

وما أحسن ما أوصى به الزمخشرى أن يكتب على قبره وهو :

يا من يرى مَدَّ البعوضِ جناحَها
فى ظلمةِ الليلِ البهيمِ الأَلْيَلِ
ويرى مَناطَ عروقِها فى نحرِها
والمخَّ فى تلكِ العظامِ النُّحَّلِ
امننْ علىَّ بتوبةٍ تمحو بها
ما كان منى فى الزمانِ الأولِ

وكما اختلف الحيوان صغرًا وكبرًا اختلف فى مُدد أعماره تخالفًا غريبًا فعاش الجرىء منه أكثر من الجبان، والمائى والبرى أكثر من الهوائى إلا الرخمة والنسر والببغاء والغراب فإنها عاشت قدر ما يعيش الإنسان، وقد اشتهر أن النَّسْر الذهبى يعيش مائتى سنة، والسلحفاة مائتين وعشرين سنة، والفيل أكثر من مائة .

ولعَمْرى إن فى طول حياة الجرئ من الحيوان وقصر حياة الجبان منها لدلالة على تفرد ذلك الصانع الحكيم بالإحياء والإماتة، فإن الجبان لم ينفعه حرصه على حياته، كما أن الجرئ مثل الأسد لم يضره إقدامه ولم ينقص من عمره فسبحان المتعزز بالكبرياء والقهر والعظمة، المحتجب بجبروته عن أن تدرك صنعته

فسبحانَ من تعنو الوجوهُ لوجهه
ويلقاه رَهنَ الذلِّ من هو جبارُ
عظيمٌ يهون الأعظمونَ لعزِّه
شديدُ القُوَى كافٍ لذى القهرِ قَهارُ

فسبحانك اللهم ظهرت قدرتك وعظمتك فى ملكك وملكوتك وتدبيرك العجيب الإحكام، سخرت الحيوان وسهلت له سبيل المنافع والمعايش وما أحسن ما قيل :

تجلت لوحدانيـــــةِ الحقِّ أنوارُ فدلَّت على أن الجحودَ هو العارُ

ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التى ليست على نمط واحد، فإن من الحيوانات ما يتم جنينه فى داخل جسده ثم يلده كالحيوانات اللبونية، ومنها ما تخرج بيوضها منها ثم يتخلق الجنين فيها مهيئًا له داخلها جميع ما يلزم من الغذاء وذلك كالطير وبعض الحيات، ومن ذلك كيفيات الإلقاح وتغذية الجنين فإنها كيفيات متباينة تؤدى إلى مقصود واحد، فبعض الحيوان لا يتم تلقيح ذكره إلا إذا وصل المنى فى باطن الأنثى، ولو تعرض للهواء فسد كالإنسان، وكثير من الحيوان ومنه ما يلقى منيه على بيض أنثاه بعد خروجه منها فلا يفسده الهواء، ومنه ما سفاده[١] فى وقت معين، ومنه لا تعيين لوقته، ومنه ما يعلو أنثاه عند السفاد، ومنه ما يدابرها ومنه ما يلصق جنبه بجنبها ويحاكُّها حتى تلقى بيضها وهو يلقى منيه على تلك البيوض فيلقحها، وذلك كبعض الأسماك ومنها ما يغذى صغاره بلبن أعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم فى ثدييه أو أثديته[٢] التى تكون على عدد أولاده فى الغالب، ومنه ما يزق[٣] أولاده زقًّا كالحمام، ومنه ما يسعى بأولاده ويدلها على أقواتها كالدجاج، ومنه ما يشترك فى تربية أولاده الذكر والأنثى وذلك عندما يكون أولاده غير قادرة على السعى من أول ولادتها وذلك كالعصافير والحمام والإنسان، لأن انفراد الواحد بالتربية مع سعيه على رزقه أيضًا يكلفه فوق طاقته، ومنه ما تنفرد أنثاه بالتربية وذلك عندما تكون أولاده قادرة على السعى، وذلك كالدجاج والحجل[٤].

---

(١) سفد ذكر الحيوان أنثاه وعلى أنثاه سفدا: نزا عليها والفعل يستعمل لازما ومتعديا كما رأيت.

(٢) جمع ثدى.

(٣) زق الطائر فرخه أطعمه بفمه.

(٤) الحجل: طائر فى حجم الحمام من الفصيلة التدرجية من رتبة الدجاجات ومنه أنواع عدة أحمر المنقار والرجلين طيب اللحم.

فإذا تأمل العاقل فى هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لإرادته متجهة لنظام الكون متعاونة على إكماله .

فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطًا تامًّا بقوانين الجذب العام والتثاقل وعقول بنى آدم وإدراك الحيوانات، وما بينها من المحبة والألفة والشوق .

فالجذب العام كمحبة عمومية بين كافة أجزاء العلويات والسفليات .

وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين أجزاء صغيرة من هذا الكون، فكل ما تراه فى الحقيقة إنما يسعى للنظام التام وهو يظن أنه يسعى لمصلحته الخاصة

أُوَرِّى بسُعْدَى والربابِ وزينبَ

وأنت الذى أعنى وأنت المؤمل

ويعجبنى قول بعض أهل السنة للمعتزلى فى مجلس المناظرة حين قال :

أرأيت إن منعنى[1] الهدى وقضى على بالردى[2] أأحسن إلى أم أساء؟

قال : يا هذا إن منعك ما هو لك فقد أساء وإن منعك ما هو له فالملك له يتصرف فيه كيف شاء .

ولذلك قال الله عز وجل ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾[3] .

* * *

(١) أى الله سبحانه وتعالى الأجل الأعظم .

(٢) أى الهلاك .

(٣) الآية ٢٣ من سورة « الأنبياء » .

الفصل السادس عشر

(فى الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله)

(بأدلة عقلية قريبة غريبة)

ثم قال إبراهيم قد تكلمنا فى مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل، وهى فى الحقيقة أدلة عقلية عند من له فطنة وفراسة، فهل عندك من دليل على الآخرة غير ما يذكرونه فى كتب علم الكلام[١] بحيث يكون مقنعًا للعقول، فأنا كثيراً ما أسمع قولهم فى كتب التوحيد إن دليل الآخرة سمعى أى أننا نأخذه من الأدلة الشرعية[٢] لا من العقل.

قالت الفتاة : أنا لا يمكننى أن أقول غير ما سطر فى كتب التوحيد .

فقال إبراهيم: أنا قد خطر لى دليل لا يفهمه إلا أولو الألباب والراسخون فى العلوم.

فأشرق وجه الفتاة وقالت هات ما عندك .

فقال : من نظر بعين البصيرة فيما أودع فى هذا العالم من الحِكَم والعدل والقوانين السارية فى العلويات والسفليات والحيوانات ولغاتها وإدراكاتها وعقولها، حكم بالبداهة أنها جارية على نواميس حقَّة وحساب منتظم دقيق، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة فى مداراتها على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل.

ثم لننقل نظرنا إلى السفليات نجدها حذت حذو العلويات فى النسق والترتيب والنظام، فأى حيوان تعدى طَوْرَه؟ وأي نبات تجاوز سُنته؟ ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفطورة على حب العدل والنظام، وحذت حذو ذلك النظام الأعلى.

---

(١) ويسمى علم التوحيد أيضاً لأن أهم مباحثه وجود الله ووحدته وصفاته جل فى علاه .

(٢) كالقرآن والسنة .

فلا ترى إنسانًا على وجه الأرض إلا واستحسن العدل واستقبح الجور، ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الإنسان بل المستنبطين لها فى الحقيقة من الشرائع الإلهية يبحثون على بواطن القضايا كظواهرها .

هذه الدول الغربية أمامنا كم ينفقون الأموال، ويرسلون إلى الجهات المتباعدة من يبحث على الجانى، ولو أنفقوا ما أنفقوا، وكل ذلك لميل العقول إلى العدل وأن يجازَى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءَته، وما لنا ولأرباب القوانين والسياسة؛ فلننظر إلى سيد العائلة فإنه يعاقب على ذنوب أهل منزله ويجازى كُلاًّ بما فعل، بل أى إنسان ولو من أضعف الناس عقلا وأقلهم إدراكا رأى رجلا يضرب آخر، فإنه لا يتمالك نفسه أن يأخذ بناصر الضعيف ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾[1] .

دعينا من الإنسان وانظرى الحيوانات فإنه مركوز فى جبلتها العدل أيضًا لما شوهد كثيرا فيها، بل كثيرًا ما علم أنها تعاقب بالقتل على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهَد، فثبت أن هذه الفطرة منبثة فى كل حى على وجه البسيطة، بل هى من الموازين التى قامت بها السموات والأرض، واستقر بها كل موجود .

ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك والنبات والحيوان والإنسان وعلوم الأحكام والمنطق، وعلوم الأدب كاللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وغيرها، أن هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام فى كل شىء من الموجودات، وعلى نهجها وضعت قوانين للمجرمين فى هذا العالم، وتجرى على يد الإنسان، ولكنها مهما بالغ العقلاء فيها لا تحكم إلا على الظواهر ولا يمكن وصولها إلى الحقائق بوجه ما، فهى أشبه شىء بالجمال الظاهرى، فإنه يدل فى الغالب على الجمال الباطنى، ومن غير الغالب قد تختلف القضية، فكذلك

(١) الآية ٣٠ من سورة « الروم » .

الأحكام بالقوانين الشرعية أو الوضعية تابعة لأقوال الشهود أو القرائن ودلالتها ظاهرية فقط.

وقد قدمنا أن كل شيء فى العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل، فلا بد أن يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها فى وقت آخر، حتى يكون ميزانها على حسب الموازين الأخرى الصادقة من العلويات والسفليات، وأيضًا قد تقرر أنه لا يضيع شيء سُدًى فى هذا العالم، كما هو مقرر فى العلوم الطبيعية فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية قط بل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوءًا، فهكذا تنقلب هذه الأعمال فى الآخرة نعيمًا أو عذبًا أليمًا، فتذكروا يا أولى الألباب، فلا[١] تضيع أفعال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم أو الذين أحسنوا فى هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر:

من يزرع الشرَّ يحصدْ فى عواقبه　　ندامــــةً ولحصْدِ الشر إبانُ[٢]

وقول الآخر:

من يفـعل الخيــرَ لا يعـدمْ جـوازيَه

لا يذهبُ العـــرفُ بينَ اللهِ والناسِ

وقول الآخر:

الخيـــرُ أبقَى وإن طال الزمـــانُ بـه

والشـرُّ أخبثُ مـا أوعيـتَ من زادِ

ألا ترينَ أن زارع الورد لا يجنى الشوك وزارع النخل لا يجنى الذرة، وعلى

(١) المادة لا تفنى ولا تستحدث بنفسها بل الله هو الذى أوجدها ويفنيها بمرأى العين.

(٢) وقت ومعاد.

هذا القياس ترين النفوس تتأثر بأقوالها التى تصدر منها حُسنًا وقُبحًا، فمن أكثر من ذكر شيء أحبه بل خَاطرُ الإنسان يؤثر على أخلاقه شرفًا وضعة.

فعلمنا أن هذه القاعدة مطردة فى المحسوسات والمعقولات وجميع الموجودات، ومن فهم ما قدمنا جزم يقينًا أنه لا بد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، حتى يقوم بين الناس بالقسط[1] لما ثبت أن كل هذا العالم قائم بالعدل وبقيت أفعال الإنسان لم توزن إلا وزنًا ظاهريًا، فلا بد من وزن آخر ليكون فصلاً حقًّا بميزان عدل لا يخس شعيرة.

وكيف ينتقم رئيس الأسرة وسيد العشيرة من المسيء ويحسن إلى المحسن، ولا يفعل ذلك رب الأرباب ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾[2] ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾[3] ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾[4] ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[5].

ثم إن كل ما صرحت به أو لوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهى قوله تعالى ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** ﴾[6]. قد فسر بالعدل والتسوية كما فى الخازن والنسفى[7] ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ** ﴾[8]

---

(١) يعنى بالعدل.
(٢) الآية ٢٨ من سورة «ص».
(٣) الآيتان ٣٥، ٣٦ من سورة «القلم».
(٤) الآية ١١٥ من سورة «المؤمنون».
(٥) الآية ٢١ من سورة «الجاثية».
(٦) الآية ١٧ من سورة «الشورى».
(٧) تفسيران مشهوران وراجع مقدمتى لتفسير ابن كثير.
(٨) الآية ١٧ من سورة «الشورى».

فليتأمل العقلاء وما يدريك لعل الساعة قريب بعد قوله أنزل الكتاب بالحق والميزان، وليلاحظوا ما ذكرناه فى هذه المقالة يظهر وجه هذا التعقيب العجيب، ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه ﴿ **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ** ﴾[١] يخاصمون فيها أو يشكون ﴿ **لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** ﴾[٢] عن الحق لعدم فطنتهم وإدراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ما أنزل فى الكتب السماوية المطابقة تمام المطابقة لما يرى فى العوالم بالعقل والنظر الصحيح.

على أن لنا وجهًا آخر فى ذلك وقد عرضته سابقًا على أكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جدًا، وهو أن كل بنى آدم على أى دين نراهم يحبون تخليد أسمائهم إما نقشًا على الأحجار أو فى الكتب المؤلفة، أو على ألسنة الناس، وأيضًا يحبون الخلود وطول الأعمار، ولا نرى أحدًا يحب الفناء إلا من شذ شذوذًا بينًا، ثم ذلك الشذوذ لا يدوم.

وأيضًا نرى جميع أهل الأرض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم، وإذا نظرنا إلى هذه الفطَر الثلاث المنغرسة فى نفوس البشر دلتنا دلالة واضحة أن لنا بقاءً بعد موتنا إذ جميع فطرنا التى فطرنا عليها صادقة وليس فيها كاذبة البتة، ولعمرى لا يفهم ما قلناه إلا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها، ألا يرى شهوة الغذاء والتناسل والغضب وما فينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك، فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة، وكلها فطر صادقة كما يعرفه أهل العلم، فكذلك هذه الفطرة فحبنا البقاء وتخليدنا أسماءنا دليل على أن لنا بقاء بعد الموت[٣]، وزيارة الأحياء للأموات.

(١، ٢) الآية ١٨ من سورة «الشورى».

(٣) حتى إن قدماء المصريين أحسوا ذلك بفطرهم فحنطوا الأجساد وبنوا الأهرامات.

وعموم هذه العادة فى جميع بنى آدم دليل على وجود أرواح الأموات وإلا فما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الأموات .

ولنا وجه آخر وهو أننا لا نقنع فى هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال)(١) .

وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر فى نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات فى العالم المشاهد لها، بدليل أنها لا تقف عند حد محدود، بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت إليه وأحبت أعلى منه وما سمعنا بأن أحداً قال غير هذه العبارة ﴿ **هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾(٢) .

فهذا لاستشعار النفوس جميعها بأن لها لذة أعلى من هذه، فلا بد أن تكون فى عالم آخر الذى يطابق وصفه ما أحبته النفوس وحنت إليه .

وهذه الأدلة كلها لم أرها فى كتاب وإنما هى سوانح(٣) .

ويقرب من هذا أن كافة بنى آدم يميلون إلى عبادة الخالق فى كل صقع من أصقاع الأرض، حتى أهل جزائر المحيط الهادى الذين تباعدت ديارهم عن المتمدنين، وإنما اختلافهم فى تعيينه، فمنهم من ظنه شجراً، ومنهم من ظنه تمثالاً، ومنهم ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع، ولا شك أن هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم .

فأعجب الفتاة ما قال إبراهيم وقالت ما سمعت أدلة أوضح وأبين من هذه .

* * *

(١) ويقول صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

(٢) يقول تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ الآية ٣٠ من سورة « ق » .

(٣) يقول المؤلف اطلت بعد هذا على استدلال أفلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة، على أن هناك أمرا ثابتًا وهى صورنا الدائمة فى عالم آخر، ثم اطلعت على بقية هذه الوجوه فى كلام الحكماء بعد تأليف هذا الكتاب بسنتين، فحمدت الله حمداً كثيراً .

الفصل السابع عشر

(فى مناظرات عجيبة ومحاورات غريبة من مبتكرات)

(هذا الكتاب جرت بينهما)

(أعجوبة الزمان وحكمة الرحمن فى خلق الإنسان)

ثم صال كل منهما صولة، وجال فى ميدان العلم جولة، إذ العلم أنس العلماء، وبهجة الحكماء، فسأل إبراهيم جمالا عن أعاجيب الزمان من المبانى الأثرية، والعجائب الشرقية والغربية، وعن أبدع ما رأته وأجمل ما بان بناه[١] وأحسن الزخارف وأبهر اللطائف، فقالت لعله الإيوان لكسرى أنوشروان[٢]، أو قصر النعمان[٣] أو الأهرام المصرية أو برج إيڤل الإفرنسية، أو منارة بيزه المائلة المحنية فى البلاد التليانية.

فقال ليست هذه بالأعاجيب، ولا هى مقصد الفطن اللبيب.

فقالت جمال لعلك يا إبراهيم تريد صرح نمرود أو قصر بلقيس أو صرح هامان أو إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد.

فمكث إبراهيم غير بعيد وقال: أحطتُ بما لم تحيطى به وجئتك من سبإ بنبإ يقين.

فقالت جمال لم يبق إلا المُحال يا أيها المختال.

فقال إبراهيم سمعًا لما أقول، سمعًا لأعجب المبانى وضعًا وأتقنها صنعًا ولكنى ألغز لغزاً ولا تسمعين منى إلا ركزًا[٤].

---

(١) أى ظهر وجوده.

(٢) كسرى ملك الفرس وكل ملك للفرس فهو كسرى وكسرى الذى معنا هو أنوشروان.

(٣) النعمان بن المنذر وقصصه مشهورة.

(٤) الركز: الصوت الخفى يقول تعالى: ﴿**هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا**﴾ والجمع ركوز وأركاز.

إن اعجب المبانى قصرٌ حسنٌ زَيْنٌ قد ارتفع على عمودين، ما رأت عينى مثله فى البهجة والرواء، وإتقان البناء والحسن والجمال والكمال والاعتدال، فلا هو من طين ولا من حجر ولا قصب ولا مدر ولا شعر ولا وبر، ولا مما يغرس فى الغبراء(١) ولا مما ينزل من السماء، ولا من فضة أو ذهب، ولما كنت رأيته قلتُ فى نفسى لعله ذهب حسى إذ دهشت مما رأيت، فظاهره بديع وحليه مزدان بأجمل ترصيع، ومما هالنى منظره وأدهشنى مخبره أنهار تجرى على جوانبه هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، وهذا هلامىّ(٢) القوام وهذا يسيغ الطعام، وحوله المزارع الخضرة بأشكالها البهجة النضرة، تأخذ بمجامع القلوب سناء وإشراقًا، وتبتهج نضرتها جمالاً وإيراقًا وتزهو للناظرين حسنًا وإبراقًا.

ثم نظرت طباقه فإذا هى ثلاث طبقات بنور الكهرباء مزدانات، وفيها سلوك لاتصال الأخبار من الملك إلى الرعية ومن الرعية إلى الملك، فإذا حدث حادث من أى حدب عرفه الملك فى لمح البصر، أو هو أقرب، ولولا خوف اللطيف الخبير لقلت إنه على كل شيء قدير.

وهاك تفصيل طبقاته لتعرفى كنه صفاته، أما طبقته العليا فهى مقر الملك ووزرائه وعيونه وترجمانه وفى تلك الطبقة باب القصر، فلا يصدر صادر ولا يرد وارد إلا إذا أذن الملك، وقد رأيت بوابًا شديد الحذر كلما أمره الملك ائتمر وعيونه وأعوانه كثيرون لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهذه الطبقة متينة البناء فى سمت السماء تناسب شرف الملك وعلو قدره وخطره وجاهه، والحراس حولها سامعون مطيعون من كل حادث حذرون، ويقلها من أسفلها عمود فوق الطبقة الوسطى وهى أوسع من الأولى ومن أبدع ما رأيته، فيها مخزن عمومى يمد سائر

(١) الغبراء: هى الأرض.

(٢) نسبة: إلى الهلام وهى مادة بروتينية شفافة تستخرج من الأنسجة الحيوانيه المختلفة مثل الجلد والعظم والأربطة وتكون جامدة عند جفافها ولكنها تتحول إلى سائل بالرطوبة.

سكان طبقات القصر بالميرة[١] من الأغذية اللطيفة، وفواكه مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون وسدر مخضود، وطلح منضود، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فهالنى ذلك المكان وكثرة السكان وتمام الإتقان وقلت : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

ومن العجيب أن تلك الأطعمة كلها مطبوخة في أوانيها مهيأة لمتعاطيها، وكل من السكان لا يأخذ من الطعام إلا بقدر معلوم .

وهذه الطبقة الوسطى فيها باب يوصل إلى الطبقة السفلى فدخلت منه فرأيت عالما كبيرا فيه تلك الأقوات المذكورة من جميع الأصناف وهى فى أيدى العملة يطبخونها ويميزون الخبيث من الطيب، ويرفعون خالص اللباب إلى الطبقة الوسطى لتوزيعه على السكان . كما قدمنا فى البيان، وأما الخبيث فيركمونه[٢] جميعًا فينزلونه من طريقين أسفلين: أحدهما من خلف لما غلظ من الخثالة[٣] والآخر من الأمام لما رق من النخالة .

ومن الغريب أن هؤلاء العملة يجدون فى الليل والنهار لا ينامون، وهم عن العمل لا يفترون ولا يسأمون، وهذه الطبقة على العمودين اللذين ينتقلان من مكان إلى مكان كإرَمَ ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد .

والأعجب والأغرب أن هذا القصر مع انتقاله، حوله عملة أقوياء وترينهم يزرعون ويسقون وهم من خشية الملك مشفقون ويفعلون ما يُؤمرون .

فقال خبرينى عن هذا البنيان فقد حارت فيه الأذهان .

فأجابته الفتاة بالعقل بعد التأمل والتفكير فى كل صغير وكبير .

---

(١) أصل الميرة : الطعام يجمع للسفر ونحوه .

(٢) يجمعون بعضه فوق بعض .

(٣) لعلها الخثارة وهى الفضلة من كل شىء .

وقالت ليس ذلك هو الصرح الممرد من قوارير[١] ولا مما يبنى من الذهب بالقناطير، إلا أن هذا البنيان هو الإنسان فقد خلق فى أحسن تقويم وأبهج شكل حديث وقديم، فأنهاره السوائل ما يسيل من منافذه فريقه حلو، ودمعه ملح، وماء الأذن مر، ومخاطه هلامى القوام مستقذر عند الخواص والعوام، ومزارعه شعوره المرسلات عرفًا والمنشرات نشرًا، ترسل بين يدى المودة بشرى، وأما نور الكهرباء والأسلاك التلغرافية فهى كالحياة السارية فى الأعصاب، المنتشرة فى أنحاء الجسم، فمنها ما يأتى بأخبار الإحساس، مما يحدث بالخارج من الآلام والآفات واللذات، ومنها ما يحرك الأعضاء تارة للطلب وأخرى للهرب بأمر الروح الذى مركزه الدماغ، فهو إذن مركز الإحساس والحركة، فلا إحساس إلا وهو مورده، ولا حركة إلا وهو مصدرها، والطبقة العليا هى الرأس وفيها العقل وأمامها الحواس وهى السمع والبصر والشم والذوق، وهى تقابل أعوان الملك وعيونه[٢] (جواسيسه) وحاسة اللمس أفضل الجميع لأنها تعم جميع البدن للإخبار بما يلاصقه، والحواس الباقية تأتى بأخبار البعيد والقريب، فما أبدع هذه الغرائب، وحاسة اللمس لا يخلو منها حيوان حتى الديدان الصغيرة والعلق[٣] الذى فى طبقات الثرى فهى الدليل على حياة كل حى، أما الحواس الأربعة الباقية فقد يخلو منها بعض الحيوان وهى كالطلائع والحراس ورواد الماء، وحاسة اللمس وحدها كخفراء المدينة وشرطييها الذين هم داخل أسوارها لا يتجاوزونها .

أما تلك الأربع فكل منها قد اختص بعالم من العوالم يأتى بأخباره فالسمع موكل بعالم الأصوات، والبصر بعالم الألوان، والشم بعالم المشمومات، والذوق بعالم المطعومات .

---

(١) والذى بناه سليمان عليه السلام للملكة بلقيس .

(٢) والعين من المشترك اللفظى تطلق على أكثر من معنى على العين الباصرة والعين الجارية بالماء وعلى الجاسوس وعلى الذهب والفضة إلى آخره .

(٣) العلق : هنا دود أسود يمتص الدم يكون فى الماء الآسن .

وأما اللمس فاختص بعالم الملموسات التى تلاصقه .

وأما العمود الذى تحت تلك الطبقة فهى الرقبة .

وأما الطبقة الوسطى فهى الصدر وفيه الرئتان فهما معدتان لإصلاح الدم ليدخل له خالص الهواء، وينفى الخبث عنه كما ينفى الكير خبث[١] الحديد، والقلب يوزعه على جميع أجزاء الجسم بقدر معلوم فللغليظ غليظ وللرقيق رقيق، وللكبير كبير وللصغير قليل، فكل من تلك الأعضاء له مقام معلوم بحساب منظوم على حسب النظامات الطبيعية .

وأما الطبقة السفلى فهى البطن وما حوت من المعدة والأمعاء ففيها كافة الأطعمة النازلة من الفم، وهناك تطبخ فما رق وراق من خالص اللباب ذهب إلى الكبد فاستحال دمًا عبيطًا[٢]، ومنه يصل إلى القلب فيمكث فى الجسم، وأما ما لا ينفع الناس فى أجسامهم فإنه ينزل من السبيلين[٣] ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾[٤] .

وأما العمودان المنتقلان فهما الرجلان .

وأما العَمَلة[٥] فهما اليدان واعلم يا إبراهيم أن فى هذا الترتيب سرًّا عجيبًا ونظامًا غريبًا من فهم كنهه أشرقت فى قلبه أنوار الحكمة، وذلك أن لكل دولة ثلاث طبقات : عليا وهم أرباب التفكر والعقل والعلوم والمعارف والتدبير، وهم القائمون بإدارتها المدبرون لأمورها كالملوك والوزراء وأرباب الدولة ومن نحا نحوهم وهؤلاء لهم فى الدولة المساكن العليا والقدح المعلى[٦]، ويقابلهم فى الإنسان عقله وقواه التى فى دماغه وحواسه، وهى لا شك فى أعلى الإنسان .

---

(١) الخبث هو ما ينفيه كير الحداد عند إحمائه .

(٢) الدم العبيط : هو الطرى .

(٣) القبل والدبر .

(٤) الآية ١٧ من سورة الرعد .

(٥) جمع عامل جمع تكسير .

(٦) القدح المعلى : الحظ الأوفر .

ووسطى وهم العسكر المحاربون المدبَّرون (بفتح الباء)[١] بأوامر ذوى العقول، ويقابلهم فى الإنسان الدم فى القلب، وذلك أن الإنسان متى أحس بما يمس إحساسه غلى الدم وفار كما تغلى القدر على النار واستشاط لأخذ الثأر وحرك الأعضاء لدفع العار .

ومن العجيب أن الأعضاء إن دعيت إلى الطلب أجابت أو للهرب أجادت أو للمدافعة أماتت .

وسفلى وهم الفلاحون والعملة وهم خدم للطائفتين ومؤتمرون بأوامر القسمين، يخدمون الأمراء والعساكر، ونظيرهم فى الإنسان ما فى البطن من القوى المعدَّة لطبخ الأطعمة بنيران المعدة، وهضمها وإصلاحها بالسوائل المعدة لنضجها تجرى من جوانبها مع اختلاف التركيب والنظام الغريب، مع أن هذه السوائل التى اختلف تركيبها كالآلات البخارية لو كانت فى آلة من الآلات التى يصنعها الإنسان لاختلت .

وبالجملة فهذه الآلات فى البطن تميز الخبيث من الطيب وتجعل الخبيث بعضه على بعض فتركمه جميعًا فتجعله فى أسفل سافلين .

وهنا عبرة للمتنبهين وتبصرة للمتفكرين، وذلك أن هذا الوضع يشير بطرف خفى إلى أن من انهمكوا فى الشهوات واللذات أسفل العالمين، وأن ذوى العقول السامية أعلى القسمين، وأهل البأس والشدة بين بين .

فانظر كيف دل وضع المكان على المكانة والشرف، فيا عجبًا لهذا الوضع العجيب والإتقان الغريب الذى هو أجمل ما خلق الله، فقد جمع فى جسمه الصغير جمال العالم الكبير، فكانت روحه أشرف وأجمل، ولهذا نسب بنيان جسمه لله فى حديث رواه أبو منصور الثعالبى فى كتابه المسمى بالإعجاز والإيجاز ونصه (ملعون من هدم بنيان الله) يعنى من قتل نفسًا .

(١) اسم مفعول من الفعل دبَّر.

وجُعلت روحه عرش الله كما قيل قلب المؤمن عرش الرحمن فانظر كيف جعل جسمه بنيانًا وقلبه عرشًا، فما أدق هذه الحكم وإلى ذلك يشير بطرف خفى قوله تعالى ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[١].

فلما سمع إبراهيم قول جمال بهذا البيان عن ذلك البنيان قال ما شاء الله كان وصـــار فى الإمكان ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾[٢].

ثم قالت جمال كيف تبقى الروح بعد الموت مع أننا نرى الجسم متفرق الأجزاء، قد أكله الدود، وتناثر لحمه وبليت محاسنه، وذهب رونقه، على أننا نرى الأطباء يخدرون المرضى فلا يحسون بألم، ومعلوم أن الموت أشد من التخدير بتلك الأجزاء الطبية، فإذا كان بالتخدير لا يحس بالألم ولا بالسرور، فما بالك بالموت.

فقال إبراهيم أيتها الفتاة إن للروح بقاءً بعد الموت، وما مثل الروح فى الجسم إلا كمثل الماء فى الإناء أو السراج فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى، فكما أن الماء إذا كان فى الإناء أعطى صفاته من حيث الشكل واللون فيحمر لاحمراره ويصفر لاصفراره ويخضر لاخضراره، كذلك الروح ما دامت فى الجسم تعطى حكمه وتتأثر بتأثره فتتخدر بالتخدير وتضعف بالضعف، حتى إن المريض نراه سيء الخُلق لانحراف مزاجه وضعف قواه البدنية، والخُلق من صفات الروح لا الجسم، فهاهنا تأثرت الروح بالجسم، وهكذا حال السكران، وأقوى من ذلك كله المادة التى تشمم للمريض وهى الكلوروفرم فإنها خلاصة مواد متخمرة، وبعبارة أخرى خلاصة خمر فلا جرم إذا كان تأثيرها أشد وهذا كله لحكم الجسم على الروح كما

(١) الآية ١٠٩ من سورة «التوبة».

(٢) الآيات من ١-٤ من سورة «الرحمن».

حكم الزجاج على الماء[١] فيه، فأعطى كثيراً من أحكامه وصفاته، وكما أن الزجاجة إذا انكسرت رجع الماء إلى حاله الأولى، فهكذا الروح إذا فارقت الجسم رجعت إلى عالمها متحملة بأنوارها أو ظلماتها، بل مثل الروح فى الجسم كمثل المصباح فى الزجاجة فإذا لونت الزجاجة بأى لون خرج ضوء الزجاجة على ذلك اللون نفسه من أحمر أو أخضر أو غيرهما، فإذا كسرت الزجاجة بقى النور بشكله الأصلى، فالروح إذا فارقت الجسم رجعت إلى عالمها فإما إلى جنة وإما إلى نار.

أما كيفية النعيم والعذاب للميت فذلك من عالم غير عالمنا، لا يمكننا الحكم عليه بشىء من الأحكام، فإن أصاب الميت نار أو عقارب أو حيات، أو استظل فى ظلال وتمتع بالحور العين أو غير ذلك فهذا يستحيل مشاهدته، إذ هو فى عالم غير عالمنا فلا نراه إلا بعيون تُخلق لنا إذا وصلنا إليه، ومن العبث المناقض للحكمة الإلهية أن نراه بأبصار حياتنا وإلا وقع الخلط بين العالمين واختلطت عقول الثقلين ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾[٢]

وكما أن الوحى كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تراه أبصار الصحابة مع الإيمان به، كذلك الأموات يعذبون ويرحمون ونحن حولهم باكون لاهون غافلون مصدقون ﴿ **فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ** ﴾[٣] ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾[٤] ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ** ﴾[٥].

---

(١) كنت سئلت عن هذا السؤال فأجبت بالجوابين معًا، ثم بعد ذلك رأيت سقراط أجاب بالجواب الأول بعينه فمثل بالماء وقال كما قلت، فالحمد لله الذى علم بالقرآن ما علمه الحكيم بالحكمة. ا.هـ مؤلف.

(٢) الآيات ١٩ – ٢١ من سورة «الرحمن».

(٣) الآيات ٨٣ – ٨٥ من سورة «الواقعة».

(٤) الآية ١١٥ من سورة «المؤمنون».

(٥) الآيتان ١٦٩، ١٧٠ من سورة «آل عمران».

بل كثيرًا ما ينام اثنان فى لحاف واحد ويرى أحدهما بهجة وسرورًا والآخر عذابًا وسعيرًا ونحن نبصرهم فلا نرى ما رأيا ولا نسمع ما سمعا، فهكذا الأموات فى قبورهم بل الميت أشد إحساسًا وأقوى إدراكًا وأكمل من النائم، بل الموت هو الحياة الحقيقية بالنسبة للحياة الدنيا « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فنحن الآن نيام فإذا متنا فتلك هى الحياة الحقيقية نرى بواطن العوالم وخفاياها .

ولنقصر عنان القلم فى هذا المقام، فإننا لو استوفينا الكلام لدق على الأفهام، وفى هذا القدر تبصرة وذكرى لأولى الالباب[١] .

* * *

(١) أصحاب العقول .

الباب الثانى

«فى الكلام على العلويات . وفيه أربعة فصول»

* * *

الفصل الأول

(عجائب السموات)

ثم قالت يا سيدى شاقنى حسن حديثك إلى أن تسمعنى طرفًا من عجائب السموات والأرض وما خلق الله من شىء، والجو والسحاب والأنهار والجبال، لقوله عــز وجل ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾[١] وقوله ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[٢] وكيف يكون التفكر فيها والاعتبار بها.

فقال: وجوه الاعتبار كثيرة، وجمال الصنعة الإلهية يدهش العقول ويأخذ بالأبصار، فهذه النجوم الزاهرة تتلألأ نوراً وتشرق بهجة معربة عن جمال بارئها، كيف لا وما الصنعة إلا من آثار صانعها، وما النجوم وجمالها إلا بارقة من جماله ولامعة من لوامع أنواره، فمن نظر السماء وهى خالية من السحاب شاهد الدرارىَّ المرصعة محكمة الوضع على أشكال مختلفة من هيئة مثلث ومربع ومسدس وخط مستقيم وآخر منكسر ومستدير، تسير سيراً حثيثًا فى منازلها لا يعتورها[٣] ملل ولا تداخلها علل، وهى سائرة فى بروجها تارة صاعدة وأخرى هابطة، وطوراً فى رجوع وطوراً فى استقامة على حساب بديع قد ضبط فى كتب المقومين، وبذلك نفهم إجمال قوله عز وجل ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾[٤] وقوله سبحانه ﴿ **إِنَّ**

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة «الأعراف».

(٢) الآية ١٠١ من سورة «يونس».

(٣) يقال اعتوروا الشىء: تداولوه بينهم.

(٤) الآية ٥ من سورة «الرحمن».

اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[١] وأنه كيف أحصى ذلك الحساب على اختلاف أنواعه وتفرع قوانينه من ابتداء الخليقة إلى الآن.

ثم انظرى بعد ذلك فى إشراق أنوارها الساطعة على سطح الكرة الأرضية فى مشارق الأرض ومغاربها، ومنها الأحمر والأصفر والأبيض وكلها قد تحلت بنضرة وسناء وبهجة وحسن منظر كما قال الله عز وجل ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** ﴾[٢].

ثم انظرى إلى ما بينها من الاختلاف والتباين قربًا وبعدًا وكبرًا وصغرًا وسرعة وبطئًا إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى، وهذه الشمس جرمها أعظم من جرم الأرض بمليون ومئتين وتسع وخمسين ألفًا وسبعمائة مرة، وقد قالوا إن أرضنا كوكب من الكواكب تضىء على القمر كما يضىء هو عليها كما أوضحه العلامة بهاء الدين العاملى فقال ما ملخصه: إن جرم القمر يقبل ضوء الشمس لكثافته وينعكس عنه بصقالته، فكذلك الأرض تقبل ضوء الشمس لكثافتها وينعكس عنها لصقالتها، فإن الأرض والماء المحيط بها كرة واحدة ونسبة اليابس إلى الماء قليلة تبلغ ثلاثة أعشارها، فلو فرض على القمر سكان[٣] لرأوا من الأرض جميع الأشكال التى نراها نحن من القمر، إنما يكون ذلك فى أوقات على عكس ما نرى نحن فى القمر، فإذا كان هو بدرًا لنا كانت الأرض فى المحاق بالنسبة لهم، لأن وجهها المظلم صار مقابلا لهم، ووجهها المضىء جهة الشمس إذ الأرض اذ ذاك متوسطة بين القمر والشمس، وإذا كان لنا خسوف كان لهم كسوفًا لوقوع أبصارهم داخل مخروط ظل الأرض فتحجب الأرض شعاع الشمس عن أبصارهم، كما يحجب ظل القمر أبصارنا عن رؤية الشمس وقت الكسوف، وهذا ظاهر لمن تأمل أدنى تأمل ممن مارسوا علم الهيئة.

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة «آل عمران».

(٢) الآية ١٦ من سورة «الحجر».

(٣) فى عصرنا هذا هبط بعض العلماء على القمر فلم يجدوا فيه سكانا.

وبالجملة فجميع الأشكال التى نراها فى القمر يرى مثلها سكان القمر من أرضنا فى أوقات مخالفة لتلك، ونور الأرض على القمر أكثر من نوره عليها بمقدار أربع عشرة مرة تقريبًا .

هذا وكما أن فى القمر محوًا كذلك فى نور الأرض الساطع على القمر محو مثله، ألا ترين أن اليابس منها لا ينعكس عنه النور بالتساوى، بخلاف البحر فإن النور ينعكس عنه بالمساواة ا .هـ ملخصًا منه ومما درسناه فى الهيئة الجديدة .

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول إن الشمس تبعد عنا بما ينوف عن تسعين مليونًا من الأميال ويصل ضوؤها إلينا فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية وضوء نجمة الشِّعرى اليمانية يصل لنا فى (٢٢) سنة والسماك الرامح فى (٢٦) والنجمة القطبية فى (٥٠) سنة فكيف يكون ذلك البعد الشاسع وكيف تكون أقدار تلك الكواكب، ومن الكواكب ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا بعد مئات بل آلاف من السنين، وهذه عجائب تدهش الألباب وتحير العقول وتقهرها على الإقرار بالعظمة لخالقها، وأنه المنفرد بالإبداع، الخلاق العظيم، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو .

ويا ليت شعرى[١] إذا كانت الشمس أكبر من الأرض بما ينوف عن مليون مرة كما قدمنا وضوؤها يصل لنا فى (٨) دقائق وكسور، فكيف يكون حجم ما يصل ضوؤه لنا فى آلاف من السنين، لعمرى إن عظمة تلك الكواكب لا يمكن وصفها ولا تصورها، وإنما تكون الشمس بالقياس إليها كحبة خردل بالقياس إلى الشمس وسياراتها وتوابعها، ثم من الكواكب ما يومه وسنته دون يومنا وسنتنا، ومنها ما هو اكثر من ذلك بكثير حتى إن سنة زحل (٢٩) سنة من سنينا، وسنة أورانوس أربع وثمانون سنة، وسنة نبتون مائة وأربعة وستون سنة وكسور، وما يعلم ما سنوه[٢] أعظم من ذلك إلا مبدع هذه العوالم جل وعلا .

---

(١) أى ليتنى أعلم .

(٢) سنوه : جمع سنة محذوف النون للإضافة وأصله سنون .

فكم من نجوم لم نعلم حقيقتها قد غابت فى تلك المسافات البعيدة عنا ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(١) ولعل هناك ما يومه ألف سنة مما نعد أو خمسين ألف سنة أو أكثر أو أقل، وأما هذه السنون فهى بالنسبة لشمسنا ومنها ما هو بطئ السير جدًا ومنها ما هو سريعه حتى إن المشترى ليجرى ثلاثين ألف ميل فى الساعة أى سبعة وعشرين ميلاً كلما تنفس الإنسان مرة، ونحو سبعة أميال مع كل نبضة فى جسم الإنسان، فإنه يتنفس فى كل دقيقة نحو (١٨) مرة ومع كل نفس (٤) نبضات فى العروق .

وكم(٢) ظهر فى النجوم من عجائب بالاستكشافات الحديثة فمنها ما ظهر وأخذت ألوانه تتغير حينًا بعد حين ثم اختفى ولم يعد إلى الآن، ومنها نجوم متغيرة لا تحفظ أضواؤها شدة واحدة بل تتغير تارة بالزيادة وتارة بالنقصان، بحيث إن النجمة الواحدة تمر على جملة أقدار مختلفة وهذه التغيرات تكون دورية فى بعض النجوم أى فى أوقات محدودة وأيام معدودة، وبعضها لم يعلم لها مدة، ويقال إن فى السماء عشرين مليون نجمة منها (١٨) مليونًا فى المجرة التى تسمى -بلسان علماء الشرع- أبواب السماء وبلسان العامة طريق التبانة، وهى عبارة عن منطقة ضيقة بيضاء غير منتظمة تقسم الكرة السماوية إلى قسمين متساويين تقريبًا على حسب دائرة عظيمة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى وعرضها متغير جدًا ومتفرع إلى فرعين يتحدان ثانيًا على بعد مائة وخمسين درجة .

وهذه السحابة الجسيمة قد أمكن علماء الهيئة استكشاف بعض نجومها وتمييزها وأغلبها لم يزل مسدولاً عليه حجاب الخفاء وهى فى الحقيقة نجوم ولكنها لشدة بعدها تتراءى لنا أنها منضمة لبعضها على هيئة تكوّن ضوءًا لبنيًا يرى فى الليالى الخالية من القمر، وعندما يكون الجوّ صافيًا، بل الشمس والسيارات والأرض والأقمار وتوابعها عبارة عن جزء صغير من تلك المجرة .

---

(١) الآية ٨ من سورة النحل .

(٢) هذا اللفظ كم معناه هنا الخبرية الذى يدل على الكثرة .

وتلك النجوم الخافية على أبصارنا فيها فلا نميزها ربما كانت شموسًا كشمسنا هذه ولها عوالم وتوابع فسبحان الواسع الحكيم الهادى .

وكم فى السماء من نجوم متقاربة صغيرة القدر جدًا حتى ترى مثل سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لا تحل إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية[١]، ويسمون تلك الجمل بالسدام (والسدام جمع سديم وهو فى اللغة الضباب وفى اصطلاح الفلكيين ما علمت) .

وهذه النجوم على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها وأقدارها وأبعادها يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، فتتجلى لنا الإشياء بواسطة الأشعة الشمسية المنبعثة على سطح الكرة الأرضية وأشعة القمر ليلاً والكواكب عند غيبتهما، وتكون لنا هداية على طرق السير فى اليابسة[٢] .

ولأرباب القوافل فى الصحارى معرفة تامة بواسطة تلك النجوم كعرب الصحراء الكبرى من الملثمين وغيرهم، فتراهم يجوبون الأقطار بما لهم من المعرفة التامة لصفاء جوهم وظهور نجومه، بل كثيرًا ما نرى العامة من ذوى الأشغال الليلية يقدرون ساعاته بطلوع نجم كذا وأفول نجم كذا كالخفراء وأرباب الفلاحة فينوطون بالنجوم تناوبهم فى الأعمال، وتعاقب دوابهم على العمل واستيقاظهم للسهر، فيا سبحان الله كأنهم درسوا علوم النجوم وعلموا أن سيرها لا يختل ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾[٣] وهدى الناس لمعرفة نظامه .

دعينا من اليابسة وأجيلى نظرك فى البحار تَرى الملاحين يهتدون بها فى ظلمات اللجج وأمواجها وسواد الليل ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج الإنسان يده فيها لم يكد يراها، فلولا أن الله عز وجل جعل تلك الكواكب نورًا وهداية لما

---

(١) العدسات المقربة والمكبرة .

(٢) أى الأرض اليابسة أقام الصفة مقام الموصوف .

(٣) الآية ٨٨ من سورة « النمل » .

اهتدى إلى سواء السبيل وضل عنها وزاغ بصره ووقع فى حيص بيص[١] ولم تتقدم الأمم ولم تتق نفوسهم إلى الارتقاء فلذلك هيأ لهم من رحمته بيت الإبرة (البوصلة) المختلفة الأنواع (التى مضى ذكرها فى المجالس السابقة) فإن أحد طرفيها يتجه إلى القطب الشمالى كعاشق لا يرتد طرفه عن محبوبه، فهذا نافع ليلاً ونهاراً، ثم بمعرفة جهة الشمال تعرف بقية الجهات[٢] وطول وعرض الطرقات وجميع الاتجاهات إلى البلاد الدانيات والقاصيات.

ويا للعجب كيف اتجهت تلك الإبرة الممغنطة الى تلك الجهة الشمالية وظهرت للأمم عند احتياجها لها كما ظهر الفحم الحجرى وقد خبأه لهم ربهم وأنضجه تحت طبقات الأرض بالحرارة ملايين من السنين قبل خلق أبيهم آدم بل قبل خلق الحيوان، حتى إذا جاءت الأعصر المتمدنة وترشحوا للارتقاء والتواصل والتعاون وارتقت عقولهم واخترعوا الآلات البخارية أخرجه لهم ربهم من المخزن العمومى لتلك الآلات البخارية ليعينهم على سفر البحار[٣] وتكون البوصلة دليله فى ظلماته، تأملى قوله تعالى ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[٤].

وبالجملة فالاهتداءُ بالنجوم سار فى البر والبحر كما قال تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[٥] وكم للكواكب على اختلاف أنواعها من حكم تبصرة وذكرى للعاقلين.

---

(١) يقال وقع القوم فى حيص بيص أى فى ضيق وشدة.

(٢) إذا اتجهت إلى الشمال كان الجنوب خلفك والشرق عن يمينك والغرب عن يسارك.

(٣) والبترول الآن ومشتقاته بل والذَّرَّة أيضا فى استعمالاتها السلمية.

(٤) الآية ٩٧ من سورة «الأنعام».

(٥) الآية ٢١ من سورة «الحجر».

ومن اللطائف أنى كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر أسمع من العلامة الشيخ الإبيارى رحمه الله يقول :

إن كواكب السماء كل منها فى مدار مخصوص ولو حاد عن طريقه اختل نظام الكون كله فهو كساعة متى اختل أحد أجزائها التى عليها المدار اختل سائرها .

ولما تلقيت العلوم الجديدة بمدرسة دار العلوم وجدت ما يشير إلى ذلك من كلام نوتون بعد كيلبير فإنه أثبت الجذب العام الذى هو قوة تنقاد لها جميع الأجسام السماوية وتتأثر بها، والتثاقل فى الأرض فى الحقيقة نوع منها .

وقال جميع أجزاء المادة ينجذب بعضها إلى بعض بقوة مناسبة طرداً لجسماتها وعكساً لمربعات أبعاد بعضها عن بعض .

فتبيَّن من كلامه أن حفظ كل فلك فى مداره متوقف على جذب جميع الكواكب الأخرى له فى مداراتها .

فلو اختل أحدها عن مركزه اختل جذبه له قوة وضعفاً فتختل جميع الموازنات .

وعرضت تلك المقارنة على أستاذنا فى علم الهيأة حضرة الفاضل عبد المجيد أفندى خيرى فأقرنى عليها .

ثم وجدتها مستفيضة شائعة بين العلماء العصريين، فما أجمل العلم وما ألذ الحكمة .

قال مؤلف هذا الكتاب وهذه المسألة سنشبع الكلام عليها فى ميزان الجواهر بأوفى بيان[١] .

* * *

---

(١) اطلبه مع هذا الكتاب .

الفصل الثانى

(فى الشمس ومنافعها)

ثم إن للكواكب منافع كثيرة، عائدة على النوع الإنسانى وما دونه من حيوان ونبات ومعدن .

لننظر إلى الشمس التى هى أعظم الكواكب جرمًا فيما يظهر للباصرة[١] كيف خلقها الله عز وجل سائرة، إذ لو كانت واقفة لاشتدت الحرارة فى موضع والبرودة فى موضع آخر (وسيرها بحسب ما يشاهد وسنشبع الكلام على ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى) ولذلك نراها تطلع كل يوم من المشرق ولا تزال تمشى فى موضع بعد موضع إلى أن تنتهى إلى المغرب فلا يبقى موضع محاذٍ لها إلا ويأخذ من أشعتها، وتميل كل سنة مرة إلى الجنوب ومرة إلى الشمال لتعم فائدتها، ولها تأثير فى العلويات وتأثير فى السفليات، أما تأثيرها فى العلويات فمنه إخفاؤها ضوء جميع الكواكب عنا لشدة ظهور شعاعها وإعطاؤها للقمر النور قليلاً أو كثيرًا بسبب قربه منها أو بعده عنها وغير ذلك، وأما تأثيرها فى السفليات فمنه تأثيرها فى البحار فإنها إذا أشرقت على الماء تصعدت منه أبخرة بسبب السخونة فإذا بلغ البخار إلى الهواء البارد تكاثف من البرد وانعقد سحابًا ثم تذهب به الرياح إلى الأماكن البعيدة عن البحار فينزل مطرًا يحيى به الله الأرض بعد موتها، وتجرى به الأنهار والعيون فيصير سببًا لبقاء الحيوان وخروج النبات وقد قال تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا** ﴾[٢] تبشر بالمطر ﴿ **بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾[٣] أى أمام المطر الذى هو رحمته لأنه سبب لحياة الأرض الميتة ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ** ﴾ حملت ﴿ **سَحَابًا** ﴾ جمع سحابة ﴿ **ثِقَالاً** ﴾ بما فيها من الماء ﴿ **سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ** ﴾

---

(١) للعين الباصرة حذف الموصوف واكتفى بالصفة .

(٢، ٣) الآية ٥٧ من سورة « الأعراف » .

محتاج لإنزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم ينبت فيه زرع ﴿ **فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ** ﴾ أى كما أحيينا البلد الميت ﴿ **نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ** ﴾ أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[١] وفى آية اخرى ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا** ﴾ قطعًا ﴿ **فَتَرَى الْوَدْقَ** ﴾ المطر ﴿ **يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ** ﴾ آيسين ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ** ﴾ بالنبات وأنوع الثمار ﴿ **بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ** ﴾ أى الله ﴿ **لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[٢].

ومن فوائد الشمس أمر المعادن على رأي المتقدمين من الحكماء فإنهم قالوا إنها مركبة من أجزاء أرضية مختلطة بمياه الأمطار تصحبها الشمس فتتولد منها الأجساد المعدينة كالذهب والفضة وسائر الفلذات.

ولكن الذى دلت عليه الاستكشافات الحديثة أن هذه أجسام بسيطة ليست مركبة كما هو مقرر عند جميع الأمم الآن.

ومن فوائدها أمر النبات فإن الزرع والشجر لا يثمر إلا فى المواضع التى تطلع عليها الشمس ألا ترين أن النخل والشجر العظيم لا ينجع الزرع النابت تحتها ولا يبدو له ثمر وإن اخضر، ومن النبات ما تؤثر فيه الشمس تأثيرًا ظاهرًا بسبب الحركة اليومية كاللينوفر والأدريون وورق الخروع، فإنها تنمو إذا ارتفعت الشمس، فإذا زالت الشمس أخذت فى الذبول فإذا غابت ذبلن وضعفن، وأمر عابد الشمس[٣] معلوم، ثم تعود فى اليوم الثانى كما كانت وهكذا.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة «الأعراف».
(٢) الآيات ٤٨ – ٥٠ من سورة «الروم».
(٣) أو عباد الشمس الذى يتجه حيثما اتجهت الشمس.

ومن فوائدها تأثيرها فى الحيوانات فإنا نراها إذا طلع النهار وأشرق نور الشمس تنتعش أبدانها وتظهر فيها قوة الحركة وزيادة النشاط، وكلما اشتدت الشمس وقويت حرارتها ظهرت عليها سيما الابتهاج وزادت قوة الحياة فى أبدانها إلى أن تصل إلى وسط السماء، فإذا مالت أخذت قوة الحيوانات وحركتها فى الضعف متدرجة فترجع الحيوانات كالموتى ثم تبعث فى اليوم التالى وهكذا إلى ما شاء الله.

ومن عجيب تأثيرها فى الإنسان أن أهل البلاد المسامتة لها سود الجلود كما قال ابن سينا:

للزنج حَــرٌّ غَيَّـرَ الأجـسـادَا حَـتى كَـسـا جلودَها سَـوَادَا

وأخلاقهم وحشية وفيهم خفة وطيش، وكلما مالت البلاد عن تلك المسامتة بعدت الألوان عن السواد وقربت من البياض بالتدريج، فمثلاً نرى أهل صعيد مصر وجوههم فيها سمرة وأهل الوجه البحرى منه أجسامهم بيضاء، فإذا أتينا إلى الترك وأهل أوربا وجدناهم أشد بياضًا، فإذا بلغنا النهاية من جهة الشمال كشمال الروسيا وجدنا قومًا بياضهم ناصع كالثلج الذى كسا أرضهم وتوج جبالهم، وأخلاقهم مثله فى البرودة، فمن ذلك تعلم أن المتوسطين فى اللون الذين بعدت بلادهم عن مسامتة الشمس وعن مدار القطبين هم القوم الكاملون وهو المعروف بالتجربة، فقد ظهر منهم الأنبياء والحكماء وأكابر العقلاء وذوو الآراء السديدة، وهم الذين أشرقت شموسهم على نوع الجنس البشرى فأفادوه أشرف الفوائد، بل المقرر فى الحكمة قديمًا وحديثًا أن الوسط فى كل شىء والاعتدال فيه هو الكمال الحقيقى[١] وهو الذى يسعى إليه أطباء الأرواح وهم علماء الأخلاق وأطباء الأجسام وهم الموسومون بالحكماء فى زماننا هذا.

(١) مثل الشجاعة فهى وسط بين الجبن والتهور والكرم يتوسط البخل والإسراف وهكذا.

ومن عجيب أمر الشمس(١) ما زعمه البراهمة أن أوج الشمس فى كل برج يمكث ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك فى ست وثلاثين ألف سنة(٢) وهو فى برج الجوزاء الآن(٣).

فإذا انقلبت إلى البروج الجنوبية انقلبت أحوال الأرض وهيئاتها فصار العامر غامرًا والغامر عامرًا والبحر يبسا واليبس بحرًا والجنوب شمالاً والشمال جنوبًا.

هـذا(٤) وقد اكتشف فى عصرنا الحاضر أن الشمس لها حركة حول نفسها وحركة أخرى حول نجم آخر مجهول لم يعلم إلى الآن.

فقال بعضهم هو نجمة من نجوم الثريا، وقال آخرون من نجوم الجاثى على ركبتيه، وقال آخرون من نجوم النسر الطائر، وعلى كل فهى وتوابعها وسياراتها جارية دائبة فى مجدة ذاهبة على قوس من دائرة عظيمة جدًا وأرضنا والقمر والكواكب التابعة لها جارية معها، وهن سارحات فى هذا الفضاء الشاسع.

فيا ليت شعرى(٥) إلى أين تذهب بنا وما مقدار يومها الذى تتم فيه قطع ذلك القوس، وكم مقدار الكوكب الذى تدور هذه الشمس حوله.

فسبحان من حارت الأفكار فى صنعته ودهشت الألباب من حكمته.

* * *

(١) هذا من عجائب المخلوقات.

(٢) ذكر المتأخرون أن الحساب نحو ٢٥ ألف سنة وكسور.

(٣) هذا باعتبار ما مضى والأوج الآن فى السرطان ا.هـ وذلك كما قال المؤلف فى زمنه وانظر مقدمتى للمؤلف.

(٤) من الآثار الفكرية أعنى قوله وقد اكتشف الخ.

(٥) أى يا ليتنى أعلم.

الفصل الثالث

(فى الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر فى الأفلاك)
(ومسألة الدوران والشمس هى الدائرة)
(حول الأرض أم بالعكس)

فقالت يا سيدى أرجوك ذكْر مقال شاف يكشف لى حجاب الخفاء عن الهيئة، فقد أشكل القول فيها وخالف السلف الخلف، ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾[١].

فإنى لا أدرى ما الصواب فيها أقَوْل الأقدمين الذين قالوا إن الأرض ساكنة وإن الشمس وجميع الكواكب تدور حولها، أم قول العصريين القائلين بأن تلك الأجرام لا وجود لها وإنما السماء لها معنى آخر وهو الشموس المشرقة وتوابعها من السيارة وسيارة السيارات، وأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض وهى الأقدار السبعة المعلومة، وأن الأرض هى التى تدور حول الشمس، ثم ما الذى حملهم على ذلك حتى جدوا فيه وما الفائدة فى تلك المباحث؟

فقال: اعلمى أن المتقدمين والمتأخرين أفرغوا وطابهم[٢] فى البحث عن الأجرام العلوية والكواكب المشرقة ولم يألوا جهداً فى البحث عنها لميل الطباع البشرية إلى اقتناص شوارد العلوم وفوائد المنطوق والمفهوم، ولذلك نرى كل إنسان يعجب بعلمه ولو فى مسألة من دنايا المسائل. فقالت: يا سيدى وهل فى العلم أدنى وأعلى.

فقال: نعم إن المعلومات تنقسم إلى علوية شريفة، وإلى سفلية تستضىء منها

---

(١) الآية ٣٢ من سورة « الروم ».

(٢) الوطب فى الأصل سِقاءُ اللبن وهو مثل لمن أفرغ كل جهده.

مركبة من عناصر سريعة الانحلال قريبة الدثور[١]، واللذة فى العلوم على حسب شرف المعلومات فكلما كان المعلوم أشرف وأفضل كانت البهجة به واللذة أكثر، وكلما نقص عن رتبة الشرف والفضل بأن استمد من غيره أو كان قريب الدثور والانحلال قلت البهجة به واللذة، وأنَّى يستوى لذة معرفة موت فلان وحياته وغنى زيد وفقر عمرو وغير ذلك، بلذة معرفة أقدار الكواكب وأبعادها وحساب دورانها وسنيها[٢] وشهورها وأيامها، وانتظام سيرها فى دوائرها، فإن اللذة بالأول وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثانى فهى عظيمة جدًّا دائمة بدوام المعلوم.

وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكماء والدول الكبيرة، ألذ من سيرة العامة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة، وكذلك العالم العلوى على السفلى، ولذلك كان البحث عن كمال الله وجماله أبهج وألذ فى النفوس الشريفة لأنه لا أشرف منه ولا أدوم.

وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ، ولذلك اتجهت أفكار الأمم بأجمعها إليه وصوبت أسهم آرائها لغرضه، ولقد اطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجرهم وبجرهم[٣] وغثهم وسمينهم فوجدت موضوع أبحاثهم دائرًا على محورين:

الأول: القوانين الحسابية التى بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول والانتقالات وغير ذلك مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا وحجنا وصومنا وإفطارنا وغير ذلك، وهو فن التقويم المسمى علم الفلك، وهذه القوانين ليس فيها بين المتقدمين والمتأخرين كبير خلاف بل هى متقاربة ولا خلاف إلا فى أمور جزئية لا تهدم أصلاً من الأصول ولا توجب خطأ فى مقول.

---

(١) أى الهلاك والفناء.

(٢) جمع سنة بالياء وحذفت النون للإضافة والأصل سنين.

(٣) يقال ذكر عُجَرَه وبُجَرَه أى عيوبه وأمره كله ما أخفى منه وما أبدى.

الثـانى : البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا وهو فن يبحث فيه عن الأرض مع غيرها من أجزاء العالم، والعالم هو سائر المحدثات فهو صنعة عظيمة تكل العقول عن الإحاطة بعلم ما احتوى عليه من المخلوقات، وعن الأبعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه، وعن السيارات والثوابت، وعن الشمس أهى التى تدور حول الأرض أم الأرض هى التى تدور حولها وعن حقيقة السموات وغير ذلك.

وهذا هو الفن الذى حمى فيه وطيس الخلاف بين الأوائل والأواخر، وعلماء هذا الفن مقرون بأن أدلتهم ظنية، غاية الأمر أن بعضها أقرب إلى الظن من الآخر ويشهد له[١] أنهم كانوا مطبقين على تقدير بُعد الزهراء عن الشمس وعلى مقدار جرمها ثم فى سنة ١٢٩٣هـ أرسلوا العارفين إلى الجهات وحرورها فعرفوا أن جميع حساب السابقين خطأ محض وأنها أقل من ذلك كله بعداً وجرماً[٢]، ومن الجائز ظهور الخطأ فى هذا التحرير أيضًا فى وقت آخر.

وحيث كانت مسائل هذا الفن ظنية اختلف علماؤه فى أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الإجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والأرض، فقد كان علماء الهيئة فى غابر الأزمنة على ما وصل إلينا يدرسون فى مدارسهم ويعلمون تلامذتهم هذه الهيئة الجديدة المعروفة الآن، فقد كان فيثاغورس الفيلسوف الشهير يعلم تلامذته فى مدرسة كروتونيا من بلاد إيتاليا على طريقة حركة الأرض، وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بمدة خمسمائة عام، معتقدين أن هذا المرئى الذى نسميه سماءً أو فلكًا هو فضاء واسع وزرقته ناشئة من اكتناف الأشعة الشمسية للأجزاء الأرضية، وأن الكواكب الثابتة فى ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه، وكل شمس حولها سيارات

(١) من كتاب صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم التونسى.

(٢) أى حجما.

كسيارات شمسنا وأقمار كقمرها وذوات ذوائب كما حول شمسنا، وكل واحد من هذه السيارات والأقمار وغيرها عالم مثل كرة أرضنا، ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة، ولها دائرة مخصوصة بها وعدة متعلقات تدور حولها من السيارات .

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الأرض التى نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس، وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض إلى حيث لا يحيط به النظر ولا يدركه الفكر ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ** ﴾(١) فالسموات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكبيرة .

ولما شاعت هذه الطريقة فى زماننا هذا وأراد العلماء تطبيقها على ما ثبت عندهم من ظواهر الشريعة من كون السموات سبعة، قالوا : معلوم أن الكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى فى غاية الظهور والإضاءة فهو الطبقة الأولى ويقال لها المرتبة الأولى والقدر الأول، وما كان أبعد منها غير كثير وأقل فى الظهور والإضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية، وهكذا إلى الطبقة السادسة، كل طبقة ترى كواكبها أبعد عن التى قبلها وأقل منها ظهوراً واستنارة، والطبقة السابعة هى التى خفيت كواكبها فلا ترى إلا بالمنظرة المعظمة، فهذه الطبقات هى طباق السماء وفى قوله تعالى ﴿ **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ﴾(٢) قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التى نحن فيها، المزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الأذناب وغيرها من متعلقاتها إلى نحو ذلك من التأويلات التى شرحها علماؤهم، وكم ورد عليهم من اعتراض وكم أجابوا عنه، وقد رأيت فى بعض رسائل العلامة المرحوم عبدالله باشا فكرى أن تلك المباحث مستوفاة التفصيل

---

(١) الآية ٣١ من سورة «المدثر».

(٢) الآية ١٢ من سورة «فصلت».

فى كتاب أسرار الملك والملكوت وشرحه الموسوم بأفكار الجبروت، والشرح المذكور فى دار السلطنة السنية[٢] وهو باللغة التركية ومتنه بالعربية.

ثم إن هذه الطريقة كما قدمنا هى التى كانت سارية فى أنحاء المعمورة بين علمائها مستفيضة بين خاصتها وعامتها حتى جاء بطليموس قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة فاختارالقول بسكون الأرض ودورة الشمس عليها، وبنى مذهبه على ذلك فشاعت قاعدته بين الناس واشتهرت فى البلاد.

ولما جاء الإسلام وترجمت الكتب اليونانية إلى اللغة العربية نقلها الفارابى من فلاسفة الإسلام فى مؤلفاته العربية أوائل القرن الرابع من الهجرة، وتبعه ابن سينا وغيره، فمن جاءَ بعده، وهجرت الطريقة المتقدمة التى كان عليها فيثاغورس.

وقد قال هؤلاء العلماء إن السموات أجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات البصلة متماسة ولا تقبل الخرق ولا الالتئام وليست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة، ولا لون لها، ولا توصف بلين ولا ملاسة ولا خشونة ولا خفة ولا ثقل.

وبالجملة فهى أجرام أثيرية شريفة مخالفة للأجسام العنصرية الأرضية فى جميع أوصافها وهى التى تدور الحركة اليومية والكواكب تتحرك معها قسراً، وللسيارات حركة أخرى مخالفة لحركة السموات، أى أن السموات تدور من المشرق إلى المغرب وتلك الكواكب معها ثم الكواكب لها حركة أخرى تدور بها من المغرب إلى المشرق كنملة على دولاب[١] تسير متجهة إلى غير جهة حركته، وبهذه الحركة المخالفة تكونت الفصول والسنون وانتظمت أحوال العالم ودوّن ذلك فى كتب المتقدمين.

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الإسلام أخذ بعضهم فى تطبيقها على

---

(١) الدولاب : الآلة التى تديرها الدابة ليستقى بها « الساقية » .

(٢) اسطنبول بتركيا — عاصمة الخلافة الإسلامية السابقة .

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسكت عن ذلك فريق، وفريق كفَّر القائل بذلك المذهب، ثم برهن محققوهم كالغزالى وغيره على أن هذه لا تصادم الدين وأن من اعتقد ذلك فقد جنى عليه وضل سواء السبيل وأضل الناس؛ فإن الدين لا ينفى ولا يثبت وكما أن من يقول إن الله خلق البصلة ست طبقات أو سبعًا أو ثمانيا وأنها كروية أو مثلثة أو مربعة لا نكفره كذلك، لا نكفر من يبحث فى العلويات إذ كلها من مخلوقاته عز وجل ولم تذكر إلا للاستدلال على صانعها والدلالة واضحة على كل حال وعلى أى شكل.

وكثير من علماء الكلام كانوا يناضلون الفلاسفة ويخطئونهم ويضللون فهمهم، حتى قال العلامة الفخر الرازى إن الأقرب للقرآن أن تكون الكواكب سابحة فى السماء كما يسبح السمك فى البحر وأدحض حجتهم فى قولهم إن الخرق والالتئام مستحيل على الفلك واستدل بقوله تعالى ﴿ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾(١).

وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفيضة الآن ويقارن بين الطريقتين ويميل إلى هذه الطريقة كما سيظهر قريبًا، ثم نبغ ببلاد لهستان رجل يقال له كويرنيكوس تمهر فى العلوم الرياضية واشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهى سنة ٩٣٧ من الهجرة، فرجع إلى الطريقة التى كان عليها فيثاغورس المؤسسة على حركة الأرض، وقرر أن الشمس مركز وأن الأرض والسيارات تدور حولها فأولا عطارد ثم الزُّهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشترَى ثم زحل وأيد هذه الطريقة بأدلة وأشهر ذلك فى كتاب له عنوانه (حركات الأجرام السماوية) فحكم عليه فى مجمع كنيسة رومة بالزيغ والإلحاد، ولو أمكنهم قتله لقتلوه، ونهوا عن إشهار كتابه، ومع ذلك شاع هذا المذهب فنسب إليه وقيل هيئة كويرنيكوس.

---

(١) الآية ٣٣ من سورة « الأنبياء ».

ثم قام بعده جماعات فى جهات متعددة وأزمان مختلفة فى أنحاء أوروبا، وعولوا على هيئته وسموها بالهيئة الجديدة وسموا التى قبلها بالقديمة، وأنت ترى من هذا أنها فى الحقيقة هى القديمة وأن تسميتها جديدة بحسب ما شاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة، والطريقتان مذكورتان مستفيضتان فى الكتب الإسلامية، وقد ذكرهما العلامة عضد الدين عبد الرحمن ابن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ من الهجرة فى كتابه المسمى بالمواقف، وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة، ثم كر على تلك الاعتراضات بالنقض والرد، وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ فى شرحه وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد .

وليتأمل البصير كيف كان علماء الإسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل أن يظهر كوبرنيكوس، ويدعى البعض أن ما تلقفوه من أفواه أساتذتهم من الإفرنج تقليداً لهم مخترع من عندهم لم يسبقهم به أحد، وهكذا نسبة كثير من المسائل إليهم، مع أنهم فى الحقيقة ناقلون عن غيرهم ويدعون أنهم هم السابقون، فليتأمل المنصفون، راجعى تاريخ العلامة سديو المؤرخ الشهير الفرنساوى تعلمى الحجج الدامغة التى أقامها على أن أكثر الاختراعات لبنى جنسه كذب محض، وأنها فى كتب العرب من قبل .

فقالت له قد طال الكلام فى هذا الموضوع، فما رأيك .

فقال إنى قدمت الأسباب إلى رأيى فى صدر هذه المقالة، وأزيده الآن وضوحاً فأقول .

إن الله عز وجل فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه، ولو نظرنا لجميع الحيوانات التى على وجه الأرض وكذا الإنسان لوجدنا كل فرد منها يعلم ما يحتاج إليه حق العلم ويجهل ما عداه لطفاً من الله تعالى به، ولما كانت الكواكب

والأفلاك لا نحتاج منها إلا إلى القوانين الحسابية، أظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين القاطعة، ولم يَحْمَ وطيس الخلاف بين الأمم فى الأزمنة المختلفة فيها، والخلاف فيها يسير جدًا لا يهدم أصلا من الأصول .

أما معرفة أجرام السماء وسكانها، وهل الأرض التى تدور أم الشمس فجهلنا به وعلمنا سيان لا يتوقف عليه أمر من أمور معاشنا لما ثبت بالبرهان أن الحساب لا يختلف سواء اعتبرنا الأرض هى الدائرة أم الشمس .

ومن عجيب الأحكام أن أدلته ظنية فعظم الخلاف بين الطائفتين بالإثبات والنفى، وكأن الله أراد أن يرينا أن أقرب شىء إلينا جهلناه ويا للعجب كيف نجهل حالنا مع أرضنا أنحن مقيمون أم ظاعنون ومستقرون أم متحركون، وذلك مصداق لقوله عز وجل ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾[١] .

فكم من شىء جهلناه وهو قريب منا كمسألة الروح، فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء فى كل عصر، ولم يهتدوا إلى الآن وما علم الهيئة إلا كعلم الطب فإنه ظنى أيضًا .

فقالت الفتاة لقد بنيت كون الهيئة علمًا ظنيًّا، على أنه ليس مما يحتاج إلى تحقيقه فى المعاش والمعاد، وعلى قياسه على الطب، وأنا أحتج على أن المسألة يقينية بما رأيته فى كتب القوم من البراهين، فلا أسلم أن علم الهيئة ظنى .

فقال اختصرى فى البراهين فالوقت لا يسع، والقصد أن يكون مجلسنا نبذًا لطيفة وأثمار علوم لا جدليا .

فقالت : استدلوا أولاً بأنه لا يصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر فالعكس هو الطبيعى .

---

(١) الآية ٢١ من سورة « الحجر » .

ثانيًا كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض.

ثالثًا تغير ظل الأرض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئة تدل على أنها دائرة وظلها تبع لها.

رابعًا: ذبذبة البندول فقد وضعوه وضعًا بدقة لايتأثر بمؤثر خارجى عليه فرسم خطوطًا تتقاطع وتكوّن رؤوسها أقواسًا تطول كلما قرب البندول من القطبين، وتقصر كلما قرب من خط الاستواء وفيه يكون على خط مستقيم دائمًا.

خامسًا أنهم وضعوا مقداراً من الزيت فى الكؤل[١] وأداروه بإبرة فدار وتكوّرَ وتفرطح فى قطبيه إلى آخر ما قالوا فلعلها مثله.

فقال لها إبراهيم بعض هذه الأدلة أقيسة تمثيلية وهى لا تثبت حكما، وبعضها مبنى على الاستبعاد، وهما لا يفيدان القطع ولكن باجتماعها أفادت الإقناع لا اليقين.

فقالت الفتاة هل القرآن ينافى هذا المذهب على فرض أنه يقين.

فقال إن القرآن كلام الحكيم الذى أعجز جميع البلغاء والفصحاء، ولم يكن القصد منه أن نشغل أذهاننا بتطبيقه على كل مذهب يحدث فى العالم وعقول الناس تتفاوت، ولو طبقناه على هذا المذهب هل نأمن أن تحدث مذاهب أخرى فوجب أن يطبق عليها أيضًا.

كيف ولم تذكر العلويات فيه والكائنات الأرضية إلا ليعرف كمال الصانع بالصنعة أما كون الصنعة دائرة أو ساكنة فذلك ليس محل بحثه، وكم حاول العلماء تطبيقه على الهيئة التى أدرجت فى الأكفان، مع أن كثيراً من ظواهر الألفاظ كان يخالفها، حتى جاء اكتشاف الإفرنج فأبطل المذهب السابق، وظهر أن تلك المحاولة والتطبيق على المذهب البائد لم يصادف محله.

(١) الكحول أو «السبرتو».

على أن علماء الإسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالفون مشاربهم بآرائهم الثاقبة حتى وافقوا من قبل علماء الإفرنج فى هذه الأيام . . .

فقالت وهل تذكر شيئًا من ذلك فقال نعم .

أولاً : نفس دوران الأرض فقد شُم من كلام صاحب المواقف أنه يعتمده وهذا كان قبل أن يعرفها الإفرنج .

ثانيًا : كانوا يعتقدون النحس والسعد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات .

ثالثًا : عدم الخرق والالتئام فى الفلك .

رابعًا : أن الأفلاك لها نفوس وإرادات .

خامسًا : أن بَعْد الهواء كرة النار .

وكل ذلك نقضه علماء الإسلام ووافقهم الإفرنج فى هذه الأيام .

على أننا لو أرخينا العنان للقلم ونظرنا فى القرآن لوجدنا ما يشير إلى الطريقة الجديدة وإن لم يذكر فى كتب المتقدمين منها قوله تعالى ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾[1] بعد قوله ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ﴾[2] ومنها أنه قال ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** ﴾[3] فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض، يشير إلى أنها من آثار الأرض، ويقوى ذلك أنه قال يغشى الليل النهار فجعل الليل الذى هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس ففيه تلميح إلى أن الأرض هى التى تحدث ذلك بفعل الله تعالى،

(١ ، ٢) الآية ٨٨ من سورة « النمل » .

(٣) الآية ٣ من سورة « الرعد » .

ومنها ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾(١).

فجعل النهار الذى هو مقابلة وجه الأرض للشمس مجليًا لها، والليل الذى هو الظلمة الأصلية للأرض مغشيًّا لها، فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل والنهار الذى هو من آثار الأرض.

وهذان الوجهان ذكرهما العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسى، ومنها قوله ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(٢) بعد ذكر الأرض والقمر والشمس.

ومع ذلك كله فالقرآن لا يعارض شيئًا من هذه الأشياء.

على أننا لا نحتاج لتأويل القرآن إلا لليقينيات، وهذا ليس منها فإن نوع بنى آدم لا يمكنه أن يحيط بشىء من علم الله تعالى إلا بما شاء، وهل يشاء الله أن نعلم ما لا مصلحة لنا فى علمه، بل علم مثل ذلك ربما أضر بمصالح الإنسان من حيث ولوعه بما هو بعيد عنه، وربما يشغله عن أمور معاشه.

بل الأغرب أن أحد العلماء الفرنساويين المتأخرين قال ما ترجمته: إن للعقل حداً محدوداً لا يتجاوزه، فإتعاب العقل فى معرفة الأجرام العلوية وماهيتها كإتعاب البصر فى أن يرى ما فوق السقف من أسفله، فهب أنك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فإنه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى ما فوقه.

ويناسب هذا ما صرح به عالم الفرنساويين المسمى فيلكس لاميروس فى القرن التاسع عشر من قوله: إن الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب فإن هذا المعنى بحث عنه الطبيعيون فلم يوفوه إلخ ما قال، فكلام هذين العالمين يؤيد ما قلنا، من أن هذه ظنيات انظره فى كتابنا ميزان الجواهر(٣) وسيرد عليك فيه أيها القارىء أن

(١) الآيات ١ - ٤ من سورة «الشمس».
(٢) الآية ٣٣ من سورة «الأنبياء».
(٣) يصدر مع هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

شاء الله تعالى أن كل حيوان له حد ومقدار فى المعارف لا يتجاوزه ولا ينقص عنه، ولولا ذلك لاختل نظام العالم.

* * *

الفصل الرابع

(فى الكلام على عجائب القمر ومنافعه)

ولما كان القمر يتلو الشمس فى الشهرة وتعرف به الأشهر(١) وجب أن نذكر شيئًا من خواصه فنقول: من عجائبه أمر البحار وذلك أن القمر إذا صار فى أفق من آفاق البحر أخذ ماؤه فى المد قليلاً مع القمر ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر فى وسط سماء ذلك الموضع فإذا صار هنالك انتهى المد منتهاه، فإذا انحط القمر من وسط سمائه جزر الماء ولا يزال كذلك راجعًا إلى أن يبلغ القمر مغربه فعند ذلك ينتهى الجزر منتهاه (ومعنى الجزر انحسار الماء والمد ارتفاعه) فإذا زال القمر عن مغرب ذلك المكان ابتدأ المد مرة ثانية، إلا أنه أضعف من الأول، ثم لا يزال كذلك إلى أن يصير القمر فى وتد الأرض فحينئذ ينتهى المد منتهاه فى ذلك الموضع، ثم يبتدىء بالجزر والرجوع، ولا يزال كذلك حتى يبلغ القمر مشرق ذلك الموضع فيعود المد إلى ما كان عليه أولاً، فيكون فى كل يوم وليلة فى ذلك المكان من البحر مدان وجزران.

ومنها أمر أبدان الحيوان فإنها فى وقت زيادة القمر تكون أقوى والسخونة والرطوبة والنمو عليها أغلب، وتكون الأخلاط فى بدن الإنسان ظاهرة والعروق ممتلئة، فأما إذا أخذ القمر فى النقص فإن الأبدان تكون أضعف والبرد عليها أغلب والنمو أقل والأخلاط فى غور البدن والعروق أقل امتلاء وذلك ظاهر.

---

(١) الأشهر الهجرية العربية أو القمرية.

ومنها أن شعور الحيوانات يسرع نموها وتغلظ فى أول الشهر وفى آخره تكون على الضد وكم أودع اللطيف الخبير فى القمر من فعل عجيب وتأثير غريب .

فقد قال العلماء إن ألبان الحيوانات تكثر فى النصف الأول من الشهر وتزداد أدمغتها ويكثر بياض البيض المنعقد فيه، وتسمن الأسماك فى البحار ويكثر وجودها فيه ويسهل صيدها ويقوى فيه فعل الحشرات التى تلسع أو تعض كالعقرب والحية ويكثر خروجها من أوكارها فيه .

وفيه يكثر طلب السباع للصيد وأن الأشجار إذا غرست فيها أسرعت النشوّ والحمل، وإذا حصل لقاحها وحملها فيه جاد ثمرها .

وقد شوهد عند أرباب الفلاحة بل عند العامة منهم أن الفواكه والرياحين والزَّرع والبقول والأعشاب وغيرها كالخوخ والبطيخ والسمسم والقثاء والخيار والقرع تزيد فيه زيادة أكثر منها فى النصف الأخير، وإذا وقع نوره على الفواكه أعطاها لونًا عجيبًا أصفر فاقعًا او أحمر قانيًا او أبيض ناصعًا او أزرق زاهرًا .

وهذا كله فى زيادة القمر .

أما فى نقصانه ففعله أقل فتكون ألوان الفواكه أقل جمالا ويقل نمو الفواكه والزرع ونمو القثاء والخيار وتقل الألبان فى الضروع ويضعف فعل ذوات السموم، ويقل طلب الوحوش للصيد، ويقل خروج الحشرات من أوكارها وهكذا ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾(١) .

وهذا كله رأيته فى كتب القدماء، وكم فى القمر من فوائد غير ذلك، فمنها أنه يقسم الزمان إلى شهور بدون معاناة حساب، ثم الشهور تكون سنين كل اثنى عشر شهراً منها سنة، وهى المسماة بالسنين القمرية .

* * *

(١) الآية ٨٨ من سورة « النمل » .

الباب الثالث

«فى ذكر آيات من القرآن مشتملة على جميع ما تقدم»

«وفيه خمسة فصول»

* * *

الفصل الأول

(فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾)[١]

فقالت الفتاة كفى ما عرفناه من علم الهيئة والطبيعيات، ونحن الآن نحب أن نسمع منكم ما يحضركم فى ذلك من كتاب الله عز وجل فإنه هو النور الذى يُستضاء به، حتى إذا شرعت فى قراءته بتأمل أذكر ما ذكرناه فى مجالسنا هذه عند آياته .

فقال إبراهيم نعم إن جميع تلك العلوم مندرجة ضمن آيات من القرآن ذكرت مجمل هذا العالم وقد عدها بعضهم خمسمائة آية منها قوله عز وجل ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾[٢] والضياء أقوى من النور فخصت الشمس بالأول والقمر بالثانى ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾[٣] أى قدر عز وجل سير القمر منازل وهى ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منها منزلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة إن كان تسعاً وعشرين.

* * *

(١) الآيتان ٥، ٦ من سورة « يونس ».

(٢، ٣) الآية ٥ من سورة « يونس ».

(فائدة فى عموم رحمة الله تعالى)

(تناسب ما نحن فيه)

ثم قال اعلمى أن رحمة الله عامة فى جميع ملكه كما أنبأ عن ذلك عز وجل بقوله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] ولذلك ترين جميع طبقات الناس مغمورين فى نعمه فقد أغنى عما يتكاثر به المترفون والملوك من المال بكسرة:

مُلك كِسْرى تغنى عنه كِسْرةٌ وعن البحر اجتزاء بالوشل[٢]

وأغنى عن أوانى الذهب والفضة والنحاس وغيرها بأوانى الخزف بل بأوانى الخشب، بل ربما شرب الإنسان براحته مستريحًا لا يعانى شراء الأكواب ولا يتكلف الأسباب، وعن ثياب الخز والحرير والديباج المرصعة بالجواهر والذهب والفضة بثياب القطن والكتان والصوف، بل بجلود الحيوانات، فأدى كل ذلك مقصود الحياة، وأرى عباده رحمته فى كل شىء فضلاً منه وكرمًا.

وهكذا جميع أطوار الحياة حتى إنك ترين الأعرابى القح[٣] فى الجبل ربما لم يكن له إلا شاتان تحلبهما زوجته وتبيع لبنهما وسمنهما وقد كفتاه هموم الحياة وأسقامها، واستراح فكره من همومها وأحوالها، بل إن قلت إنه أقل همومًا من أعظم مثرٍ فى أوربا كنت وافقت المحز[٤] وأصبت الغرض وأغنى عن المدافع القتالة بل النيران المحرقة المميتة فى زماننا، هذا بسلاح من حديد بل من خشب فى الأزمنة الغابرة، بل أغنى بعض الحيوانات بإظفارها والبعض بعدْوها والبعض بقوتها إلى غير ذلك.

---

(١) الآية ١٥٦ من سورة «الأعراف».

(٢) الكسرة يقصد القطعة من الخبز والوشل ماء يسيل من أعراض الجبال.

(٣) الأعرابى القح الغارق فى أعرابيته لم يدخل المدن.

(٤) تكلم فأصاب المحز: أى تكلم فاقنع.

فمن دلائل فضله وآثار كرمه أنه لم يخص السلاح والقوة والملابس بشيء مخصوص، بل أكثر منه ليعم الطبقات كلها وهو الذى أغنى جميع الحيوان بالتفاهم بطبيعتها، فالفهم جبلة مركوزة فى كل حيوان مع أبناء نوعه ومنه الإنسان ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾(١) وإن لم يعانوا صرفًا ولا نحوًا ولا معانىَ ولا بيانًا ولا بديعًا ولا عروضًا ولا قوافىَ وهذه من أعظم الآيات قال الله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾(٢).

ولما كان مثل هذه الدقائق لا يفهمها إلا الأقلون الذين عرفوا كثيرًا من الفنون أردفه بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾(٣).

إذا عرفت هذا فأجيلى نظرك فى العلويات تجديه عز وجل أفاض على عباده نورها ولم يحوجهم إلى تجشم المشقات فى استضاءتها، وجعل منازل القمر التى ينزلها وتشكله بالأشكال المختلفة واختفاءه وظهوره دلالة واضحة لعامة الناس وخاصتهم، حتى إنك ترين الأعرابى القح يعرف السنين والحساب فلا تخفى عليه آجال دينه ولا سنو(٤) تاريخه ولا غير ذلك، ويكتفى برؤية الهلال أول الشهر عن تلك الجداول ومزاولة علم الفلك وعلم المناظر والرصد والتقويم له، فلا يحتاج إلى معرفة طول وعرض ومقام وبسط وفلك وجبر وحساب وهندسة، وما يلجئه إلى ذلك، وقد اختصر له ربه الحساب وعلمه بلا كتاب، حتى أدخله فى هذا المعنى وهو إنما قدرنا القمر منازل ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾(٥).

فهكذا جميع الكون بآثاره.

فما من شيء عند الخاصة إلا وأغنى العامة عنه بنظيره، فترين الفلاح فى

---

(١) الآية ٣٠ من سورة «الروم». (٢، ٣) الآية ٢٢ من سورة «الروم».

(٤) جمع سنه وأصلها سنون حذفت النون للإضافة.

(٥) الآية ٥ من سورة «يونس».

أرضه يعرف الظهر والعصر بقياس قدمه وبظل الشاخص ينصبه، ويقسم ليله بأقسام على حسب علامات تبدو له فى الكواكب ليلاً فلم يحوجهم إلى ساعة يديرونها، فنوره ملأ الأكوان وفضله عام ﴿ **مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾[١] الذى هو الحكمة التامة مظهرا دلائل توحيده بالبراهين القاطعة ولم يخلق ذلك عبثًا وباطلا بل ﴿ **يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[٢].

أى يبين البراهين القاطعة لقوم يستدلون على قدرة الله تعالى ووحدانيته.

ثم ترتب على سير الشمس المذكورة تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان على حسب انتقالها فى بروجها ونزولها فى منازلها وطول البلاد وعرضها.

وأن من الايام والليالى ما هو معتدل دائمًا كما فى خط الاستواء فإن الليل والنهار متساويان هناك كل منهما اثنتا عشرة ساعة.

وكما فى القطبين فإن كلا من الليل والنهار فيهما ستة أشهر فتكون السنة هناك يوماً وليلة فقط يعرف هذا من زاول علم الهيئة.

وما عدا خط الاستواء والقطبين وهو ما بينهما فمختلف دائما إلا فى يومين فى السنة وهما أول فصل الربيع وأول فصل الخريف، فقد تساوى الليل والنهار فيهما فى جميع أقطار المسكونة.

وكأن هذا يشير بطرف خفى إلى أن المساواة والعدل أمر لازم لأفعاله عز وجل.

* * *

(١، ٢) الآية ٥ من سورة « يونس ».

(جوهرتان مصونتان)

الأولى : قد علم بما ذكرنا أن القسمة العقلية بالإثبات والنفى فى الليل والنهار قد وجدت فمنها المعتدلة والمختلفة .

الثانية : معلوم أن المساواة والعدل قد بنى عليهما أساس الملك كما قال الله عز وجل ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾(١) ولكن ربما خفى هذا فى الليل والنهار فربما يظن أنهما غير متساويين، فنقول إن اختلافهما ظاهرى فقط أى باعتبار الآحاد، ولو حسبنا ساعات مجموع ليالى السنة ومجموع ساعات نهارها لخرجت متساوية فهو اختلاف عند العامة مساواة عند الخاصة الذين يعرفون السنين والحساب حق المعرفة، وقد تظهر المساواة للعامة فى كافة المسكونة فى يومين من السنة نموذجًا يستدل به على الحقيقة، وهما يوما الاعتدالين الربيعى والخريفى كما تقدم .

بل من نظر لأحوال نوع بنى آدم هاله ما يرى من اختلاف الدرجات والرفع والخفض والغنى والفقر بحسب الظاهر، ولكن قد ساوى فى الحقيقة بين جميع الناس فإن فى الظهور(٢) قصم الظهور، فأودع فى كل مرتبة من المراتب آفة في جنب منفعة ونَحلة بجانب شهدة(٣) .

والناسُ جمعا عندَ كل كفؤه ... والهمُّ مفترقٌ وما أحدٌ خَليُّ

فبالنظر إلى الظاهر يظهر الاختلاف وبالنظر إلى الباطن يعلم أن هناك مساواة بوجه ما، وهذا يحتاج إلى شرح طويل لا يسعه المقام .

بل قد ظهرت المساواة للعامة بالموت حتى ساوى بين السوقة والملك، فيا للعجب كما أظهر المساواة بين الأيام والليالى فى يومين من السنة، وفى جهة خط الاستواء والقطبين أظهرها هنا بموت النوع الانسانى كله ليظهر العدل فى كافة أفعاله

---

(١) الآية ١٨ من سورة «آل عمران» .
(٢) الشهرة والرفعة .
(٣) شهدة من عسل النحل .

عز وجل للعامة والخاصة، وهذا أيضًا من عموم رحمته حيث عمم العلم والمعرفة ولو بنوع مَّا لكافة النوع الإنساني ويعجبني قول بعضهم :

إذا ما رأيتَ اللهَ في الكلِّ فاعلا عقلتَ فصيرتَ القباحَ ملاحا

وإن لم تجدْ إلا مظاهرَ صنعه جهلت فصيرتَ الملاح قباحا

ولما كان اختلاف الليل والنهار وما اشتملا عليه من العجائب الربانية التي ذكرنا وما لم نذكر أردفها بقوله ﴿ **إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ** ﴾[١] .

ولما كانت الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار من أعظم الدلائل على وجود البارى جل جلاله ذكرهما في مواضع كثيرة من كتابه منها قوله مقسما ﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾[٢] وقوله ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ** ﴾[٣] وقوله ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾[٤] وقوله ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾[٥] .

فقالت وما معنى العرجون قال هو عمود الشماريخ التى فيها البلح وشبهه به من ثلاثة أوجه دقته وتقويسه واصفرار لونه ولا يتم ذلك إلا إذا كان قديمًا .

* * *

(١) الآية ٦ من سورة « يونس » .

(٢) الآيات ١-٤ من سورة « الشمس » .

(٣) الآيتان ١، ٢ من سورة « الليل » .

(٤) الآية ٥ من سورة « الرحمن » .

(٥) الآيتان ٣٨، ٣٩ من سورة « يس » .

الفصل الثانى

في تفسير آيتين وهما ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١).

وقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

فقالت الفتاة ما معنى قوله تعالى ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾(٣).

فقال المعنى أن الله عز وجل لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه، فهما يتعاقبان بحساب معلوم، فلا يجيء أحدهما قبل وقته وقيل لا يدخل أحدهما فى سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل، ولا يضيء القمر بالنهار، فإذا اجتمعا فذلك يوم القيامة، ولذلك قال فى آية أخرى ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾(٤) وذلك أن هذا الملك منتظم على غاية من النظام والإحكام، فالشمس والقمر والليل والنهار كل بحساب منتظم، فلا يعدو أحدهما حدَّه. فإذا قامت الساعة اختل هذا النظام وفسد الإحكام وضاع الحساب كما قال تعالى ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ

---

(١) الآية ٤٠ من سورة « يس ».
(٢) الآيات ٧١ - ٧٣ من سورة « القصص ».
(٣) الآية ٤٠ من سورة « يس ».
(٤) الآية ٩ من سورة « القيامة ».

سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾[١] أى أن الشمس تظلم وتتساقط النجوم، وتسير الجبال عن وجه الأرض، وتُترك الإبل العشار بلا راع وهى جمع عُشَرَاءَ وهى التى مضى عليها من حملها عشرة أشهر ولا تزال بهذا الاسم إلى أن تضع لتمام سنة[٢] وتختلط الدواب والطير والوحش، ويضطرم البحر ويصير ناراً، وتتصدع الأرضون والسموات ثم يموت المؤمنون بريح تهب عليهم، ويميز الله الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فى جهنم، ويجعل كل طيب فى الجنة، وذلك لاختلاط هذا النظام الذى اشتبه فيه المحسن بالمسىء وامتزج الطيب بالخبيث.

أما نظام الآخرة فإنه جمع الكمال بعضه على بعض والنقص كذلك ويقرن كل خليل بخليله، ويذهب بهم إلى ما هم أهله.

فقالت الفتاة كاد الكلام يخرج بنا عن عجائب السموات وغرائبها والليل والنهار، فما معنى قوله عز وجل ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[٣].

قال إبراهيم إن اللطيف الخبير خلق النبات يتغذى من الأرض والماء والهواء، وهذه الثلاثة متيسرة له فى أى مركز وجد، فسخر له الأمطار والبحار التى تستمد

---

(١) الآيات من ١ – ٧ من سورة التكوير.

(٢) والحوامل فى هذه الشهور تكون عزيزة على أهلها إلا أنها تهمل من عظم الموقف.

(٣) الآيات ٧١ – ٧٣ من سورة «القصص».

منهـا، وأجرى فى الأرض ينابيع يجرى فيهـا الماء، فالماء النازل من السـماء إما أن يكون أنهـارا وإما ينابيع فى الأرض، فعمم بفضله ذلك فاستغنى بها النبات عن الحركة، أما الحيوان فقد جعله الله عز وجل غذاء بعضه من النبات، وغذاء البعض الآخر مركبًا من النبات والحيوان والبعض من الحيوان . فقط، وليس يتيسر ذلك فى كل مكان وعلى كل حال، فسهل اللطيف الخبير له الحركة ليسعى فى طلب غذائه من مواطنه، ولا بد له من ضياء ليهتدى به وليأخذ النافع ويذر الضار، وكل امرئ فى حرفة العيش ذو عقل ولا بد للحركة من سكون وللنشاط من خمود، فمن لطيف حكمته وعميم رحمته أن أعقب الضياء بالظلام، والنهار بالليل؛ لتسكن الحيوانات وتأنس بأزواجها فى الخلوات، ويتم لها الحبور .

فانظرى كيف يكون حال هذه المخلوقات لو جعل الزمان كله ليلاً وكيف يتصرفون فى معايشهم، بل يخبطون فى الظلمات ويعمهون فى غياهب الدجنات، وإذا جعل كله نهاراً فكيف يسكنون وفى أى زمن يستريحون، فمن رحمته جل جلاله أن خلق الليل لنسكن فيه والنهار لنسعى فيه.

فقالت لم لهج[١] المغنون بقولهم يا ليل .

فقال لأن الإنسان مركب من كثيف وهو الجسم، وخفيف وهو الروح، فمتى تحرك الجسم شغل الحواس والنفس، ومتى سكن الجسم هدأت الحواس وركدت وظهر سلطان النفس، فتجتمع أفكارها ويذكر كل ما إليه يميل، وغلب على طبعه، فالليل أنس الأصحاب ومجتمع الأحباب ولذلك قيل :

لا تلقَ إلا بليلٍ مَنْ تعانقُه فالشمسُ نَمَّامة والليلُ قَوَّادُ[٢]

وإن عيب عليه من حيث الصناعة الأدبية[٣] .

---

(١) لهج بالأمر لَهَجًا : أولع به فثابر عليه واعتاده .

(٢) يقود الأحبة إلى بعضهم .

(٣) وذلك للعهر الذى فيه من حيث دعوته إلى الفجور .

ثم الليل مهبط الرحمات، ومتنزل الملائكة، فيه تجتمع الخواطر وتستدر نتائج العلوم والمنطوق والمفهوم، ويستريح الحيوان من الآلام الجسمية، فترى الناس عند سماعه يتواجدون وإلى رؤيته فرحون مستبشرون ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾[١] فهذا ذكر الأحباب والأصحاب والخلان، وهذا تذكر ركوعه وسجوده وتضرعه وهجوده وصلاته ودعاءه، وهذا ذكر الكتب والتأليف والمطالعة والتصنيف، وهذا خلد إلى الراحة من آلامه وأحزانه، بل كل ما على الأرض من حيوان فالليل له راحة لسكون أطرافه فيه، فضلاً عما له من شوق وتوق إلى أمر خسيس أو شريف وضيع أو رفيع.

فقالت الفتاة أنا أتذكر لطيفة تناسب هذا المقام وهى أن المجوس قالوا إن للعالم إلهين أحدهما إله الخير ويسمى أَزْدان بفتح الهمزة أو يَزدان بفتح الياء المثناة التحتية أوله، ويعبرون عنه بالنُّور ولذلك يستديمون وقود النار مشاكلة لذلك النور وعبدوها، وأشار لذلك الشاعر فى وصف الخمرة حيث قال :

وبتُّ فيها أرى النارَ التى سجدَتْ

لها المجوسُ من الإبريق تسجد لى

وقال فى نفسه، لو كان أحد ينازعنى فى مملكتى كيف يكون حاله معى، فنشأ من تلك الفكرة الإله الثانى وهو إله الشر فأبعده وأقصاه وحصل بينهما التضاد، ويعبر عنه بالشيطان وبالظلمة، فنشأ عنه كل شر.

ثم إن المجوس أيضًا يسمون النجوس لأنهم لا يتحاشون عن النجاسة، ومَانويَّة أيضًا نسبة لكبيرهم (مَانى).

وقد لهجت الأدباء فى أشعارهم بالتلميح إلى مذاهبهم وإبراز النكت الأدبية، حيث كان الليل وقت الصفا واجتماع الأخلاء قال أبو الطيب[٢] :

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الروم.

(٢) أبو الطيب المتنبى الشاعر المشهور.

وكم لظلامِ الليلِ عندَك من يدٍ   تُحـــدث أنَّ المانويةَ تكذبُ

وقاك سُرَى الأعدا تمر بحيهم   وزارك فيـــه ذو البنان المخضب

يقول كذب المانوية لأن ذا البنان المخضب وهى محبوبته زارته فيه ولم يعلم بها الأعداء حتى يشوا به . وقال غيره :

هَدَى بثناياه وضَلَّ بشعـــره   فكدنا نقـول المانوية تصدق[١]

وهذا كاد يضل بشعره[٢]، وقال الشيخ الأمير :

وكَم لَيلة حَيَّا الحبيبُ بوصلــه   وقد سترتنا من دُجاها ذوائبُ[٣]

ولما بدا نور الصبـــاح أراعنى   فـقلت له إن المجـوسَ كـواذبُ

وقال أيضًا :

وافى الحـــبيبُ بليلةٍ   وأزال عنا كُـــلَّ بُوسِ[٤]

وبدا الصـــباحُ فـراعَنا   لا شكَّ فى كَـذِبِ المجـوسِ

* * *

الفصل الثالث

(فى تفسير آيات من سورة النحل فيها عجائب السموات والأرض)

فقال لها إبراهيم هل تذكرين آيات متتابعات مشتملات على عجائب الإنسان والحيوان والنباتات والجبال والأنهار والليل والنهار والسماء والأرض والبحار والنجوم، وقد كان قصد بذلك اختبارها فى تفسير القرآن .

فتفكرت مليًّا ثم قالت :

---

(١) نسبة إلى بياض أسنان المحبوبة وسواد شعرها .

(٢) وذلك لقوله فكدنا نقول المانوية تصدق وهم أكذب و أكفر الخلق .

(٣) ضفائر الشعر .

(٤) سهل الهمزة وأصلها بؤس .

قال الله عز وجلُ مظهرًا لعظيم قدرته وعجيب حكمته . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(١) .

ولما أتمت هذه الآيات قراءة شرعت فى الكلام على تفسيرها إجمالاً فقالت :

---

(١) من الآية ٣ – ١٨ من سورة « النحل » .

سيدى إن الله عز وجل أظهر عظيم قدرته، وامتن على عباده بخلق السموات والأرض، لأنها أعظم مشاهد للإنسان، ولما كان الإنسان هو أعظم نتيجة لهما أردفهما بذكره، وفى عجائب خلقه أبهر دليل حيث خلقه من نطفة ضعيفة ثم صار أكثر شيء جدلاً، مع أن الأليق به أن ينظر إلى مبدئه[١] ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض، ثم عدَّد عليه صنوفًا من نعمه وضروبًا من آلائه فذكر ما ينتفع به من الحيوان والنبات والماء النازل من السماء النافع لهما، وذكر كثيراً من أنواع القسمين مما ينتفعون به وعجائب السموات ومنافع الكواكب والليل والنهار، لتوقف هذه الأنواع عليها، وذكر البحار ومنافعها والجبال وما يهتدى به من علامات الطرق.

وبعبارة أوضح أقول إن الله ذكر فى هذه الآيات نعمه على عباده بخلق الحيوانات، وأن منها المآكل والملابس فنتخذ منها ملابس الشتاء وملابس الصيف، ويتخذ منها الأعراب خيامهم وتنتفع بألبانها، ثم منها ما يحملنا ويحمل أمتعتنا إلى الأمكنة البعيدة، ومع هذا كله فهى زينة يتجمل بها، فيتسم أربابها بالأبهة والجاه لما يرى عندهم من آثار نعم الله عز وجل.

وكم له من مخلوق فى الأرض وفى السماء لا نعلمه، فعلومنا قاصرة على ما ننتفع به، فلو بحثنا عما لا نعرف لكان ذلك جوراً وظلمًا وعبثًا كمسألة الروح وحقائق الكواكب وغيرها.

ثم ذكر أنه أنزل الماء من السماء فهو لشرابنا وطهورنا وسقينا زرعنا وأنعامنا، وأنه ينبت به الزرع وهو الحب الذى نقتات به، كالحنطة والشعير وما أشبههما، وقدمه فى الذكر لأن به قوام أبداننا، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم[٢] والدهن والبركة[٣] وثلث بذلك النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة، وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة فى المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر بقية الثمار إجمالاً.

---

(١) وفى حياته وآخرته أيضًا.
(٢) والإدام ما يستمرأ به الخبز بغمسه فيه.
(٣) اقرأ الآية ٣٥ من سورة النور وتفسيرها فى كتابى التفسير المبسط للقرآن المعظم.

ولما كانت الأجرام العلوية لا بد منها لنمو هذه المخلوقات ولنهتدى بضوئها، أعقب ما ذكر بذكر تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم.

فلعمر الحق إن من لم تدهشه هذه العجائب فيوقن برب البريات لأبعد عن العقل والفهم بُعد ما بين المشرقين، فإنه فى بعض هذه فضلاً عن كلها دلالات واضحات على كمال بارئها وجمال مبدعها الحكيم وقدرته.

وانظر -رعاك الله- إلى ألوان الزرع كيف اختلفت مع اتحاد الأضواء السماوية والماء والعناصر والهواء والأرض وما أغفلنا عما بين أيدينا، وكيف جعل هذا أحمر قانيًا، وهذا أصفر فاقعًا، وهذا أزرق زاهرًا، وهذا أخضر ناضرًا، وهذا أبيض ناصعًا، وهذا أسود قاتمًا (قال مؤلف هذا الكتاب قد أوضحت هذه الغرائب في كتابنا ميزان الجواهر)(١) وكل لون منها يتنوع أنواعًا شتى وأشكالاً متخالفة فسبحانه وتعالى.

ثم هذه البحار من أدل الدلائل وأعجب العجائب، فقد جعل جل جلاله فى الماء جزءًا عظيمًا من الملح، لولاه لأنتن بطول المكث ففسد الهواء، فَلَعَمْرُكَ لم يخلق ربك شيئًا سدى، ولقد ملأه بالمنافع لعباده فمنه السمك وهو أنواع شتى، قيل إن عجائب البحر أكثر من عجائب البر، بل إن فيه السهل والجبل والعامر والغامر والرياض الناضرة والبساتين الزاهرة، والرمال والصخور، فكل ما فى البر له نظير ما فى البحر حتى إنهم اكتشفوا فى البحر الأبيض وغيره حريراً يخرج من أفواه الأصداف ويستخرجونه منها ويبيعونه فى أسواق إيطاليا، ويسمى بالبوص يشبه الحرير المعلوم كما فى مجلة المقتطف.

ثم هدانا إلى طريق استخراج ما فيه من السمك والمرجان والجواهر، فالمرجان يخرج فى أسفله، كالمزارع فى اليابسة حتى إذا استوى أخذه الغواصون، وذلك كثير

(١) يصدر مع هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى-.

عند بلاد الجزائر وتونس، واللؤلؤ يستخرجونه فى صدفه من مواضعه كبحر فارس وغيره وهذه الجواهر زينة لنوع الإنسان وحلية[١] له يلبسها .

فتبارك الله الذى سخر لنا القاصى والدانى وهدى إلى استخراجه واستعماله، فما أبدع صنعه وأجمل إبداعه .

ولما كان معظم سطح الكرة الأرضية مغطى بالماء بعيد العمق هدانا إلى صنع هذه السفن التى تمخر الماء، أى تشقه حتى تحمل أنفسنا وبضائعنا من بلد إلى آخر وإن بعدت الشقة كما قال فى آية أخرى ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾[٢] .

وجعل السفن جارية إما بالهواء[٣] وإما ببخار الماء المتحلل بالحرارة المعلوم فى زماننا هذا[٤] .

ولما كانت هذه الأرض كجسم الإنسان جعل فيها الجبال، فكلما أن الجسم له عظام تمسكه كالأعمدة، جعل كذلك للأرض الجبال لئلا تضطرب، وكم لهذه الجبال من منافع لنا فمنها الصخور والأحجار التى نبنى بها مساكننا وحصوننا وقلاعنا، ولقد جعلها اللطيف الخبير مخازن للمياه، وذلك أن المطر ينزل من السماء فيسقط على قمم الجبال وينحدر إلى السهول فيتخذ له سبلاً يجرى فيها ويحدث من ذلك الأنهار، ويجرى منه إلى باطن الأرض ينابيع أخرى تجرى تحت الأرض،

---

(١) قال المؤلف فى النسخة المطبوعة منذ أكثر من مائة عام ذكر فى مجلة الهلال إنهم اخترعوا فى أميركا آلة لضغط الهواء حتى يصير سائلاً وسيجعل قائمًا مقام غيره وهو أقل خطرًا منه وأقل كلفة وأقوى منه مائة مرة وهذا النبأ عظيم ا.هـ

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(٣) كالسفن الشراعية .

(٤) وقد وصلوا أن أجروها بحرارة الذَّرة .

فكما يرى على ظاهرها أنهار كذلك يجرى فى باطنها مثلها، وتمر على معادن مختلفة فتكتسب طعومًا مختلفة وذلك كمعدن الحديد والنحاس والرصاص والقصدير وغيرها، ولذلك تسمى مياهًا معدنية، ولها منافع عظيمة مشهورة فى أمراض مختلفة وإليها تحفر الآبار لاستخراج مياهها.

ولما كان المطر ليس بدائم جعل سبحانه بعض الماء النازل على قمم الجبال ثلجًا بما يناله من البرد الشديد فيكون كالتاج لتلك الجبال، ثم كلما ناله شىء من حرارة الشمس تحلل منه ماء ورشح إلى باطنه، فخرجت منه العيون التى تمد الأنهار ليلا ونهاراً صيفًا وشتاءً، ولولا هذا التدبير لانقطع جرى ماء الأنهر، وهو خلاف صنع الله عز وجل الذى عود عباده عظيم رحمته وجزيل إكرامه.

(لطيفة) من أعجب ما ذكر فى العلوم الطبيعية أن كل مائع إذا جمد صغر حجمه[١] إلا الماء فإنه إذا صار ثلجًا كبر حجمه عما كان وهو سائل.

فانظر ماذا ترتب عليه من تقدير العزيز العليم، ترتب عليه أن المكان المملوء به يتضايق فلا تجد الأحجار المحيطة به فى الجبل محيصًا من أن تتشقق بفرقعة عظيمة فتصير عيونًا صغيرة أو كبيرة فتصيب الشمس بحرارتها ذلك الثلج فيسيل فهذه من حكم ذلك التقدير المحكم، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾[٢].

فانظر كيف أبدع الله الماء على هذا النمط ودبره وخصه بهذه الخاصية حتى كبر حجمه فمزق الأحجار، فتفجرت منه الأنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

(فائدة): قد ظنوا فى زماننا هذا أن فى مصر مجرى جعله الله عز وجل فى أغوار الأرض يبعد عن ظاهرها بنحو أربعين أو خمسين مترًا يخرج من جبال القمر

---

(١) إذ السوائل تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة كما هو معلوم فى العلوم الطبيعية.

(٢) الآية ٧٤ من سورة «البقرة».

التى هى وراء خط الاستواء بنحو ثلاث درجات، وتنتهى بنحو الدرجة الرابعة عشرة جنوبًا، ويجرى فى باطن الأرض حيث يصب فى البحر الأبيض المتوسط ولقد حفروا آبارا فى أيامنا هذه فى كثير من البلاد المشهورة بمصر فخرج ماءً صافيًا سائغًا للشاربين، وهو أحلى من ماء النيل الظاهر وأوفق منه للشرب إذ لا يشوبه قذر ولا كدورة .

وكأن اللطيف الخبير جعل النيل الظاهرى للزرع والنيل الباطنى للشرب، وماء الآبار المعروفة ليس منه وإنما هو من مجارٍ فى باطن الأرض صغيرة كما قدمنا وماؤها أقرب إلينا، ولا يخرج فى الغالب إلا بالآلات، فما أغزر نعمه تعالى .

فانظر كيف أكثر من الماء بحيث إنه يحصل فى المواضع المقفرة ويمكن استخراجه منها بالحفر بل فى البحر الملح عيون فى أعماقه السفلى .

وبالجملة فالأرض قد جمعت بين الماء العذب والملح، وهذا الثانى أنواعه كثيرة ومع ذلك قد جعل بين العذب وبينه حصنًا حصينًا وهو قدرة الله عز وجل، فلم يبغ أحدهما على الآخر ولولا ذلك لفسد النظام، ومات الإنسان والحيوان فكم فى الأرض من مجار متجاورة فهذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أُجاج .

وكثيرًا ما يحفر المسافرون على شواطئ البحر الملح فتنبع مياه عذبة فتبارك الله الذى منع بغى ذلك البحر العظيم على هذا الوشل[١] القليل .

(يقول مؤلف هذا الكتاب قد استقصينا الكلام على هذا فى كتابنا ميزان الجواهر[٢]) كما قال الله عز وجل فى آية أخرى ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ** ﴾[٣] العذب والملح متجاورين متلاقيين لا فصل بين الماءين فى رأى العين ﴿ **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ** ﴾[٤]

(١) والجمع أوشال وهى مياه تسيل من أعراض الجبال فتجتمع ثم تساق إلى المزارع، ويقال جاءوا أوشالا : يتبع بعضهم بعضا .

(٢) يصدر إن شاء الله مع هذا الكتاب .

(٣) الآية ١٩ من سورة « الرحمن » .

(٤) الآية ٢٠ من سورة « الرحمن » .

حاجز من قدرة الله ﴿ **لَاَّ يَبْغِيَانِ** ﴾[١] لا يتجاوزان حديهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة .

واعلم أن جميع ما فى العالم على هذا النمط لا يتعدى ما رسم له كالليل والنهار والشمس والقمر، فكذلك الماء وقال تعالى فى آية أخرى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ** ﴾[٢] أى شديد العذوبة يميل إلى الحلاوة ﴿ **وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾[٣] أى شديد الملوحة وقيل مر ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾[٤] أى سترًا ممنوعًا عن الأعين كقوله ﴿ **حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾[٥] .

* * *

الفصل الرابع

فى تفسير ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾[٦]

وقوله تعالى ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ**

---

(١) الآية ٢٠ من سورة « الرحمن » .
(٢ ، ٣ ، ٤) الآية ٥٣ من سورة « الفرقان » .
(٥) الآية ٤٥ من سورة « الإسراء » .
(٦) الآيات من ٦-١٢ من سورة « ق » .

مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾[١] إلى آخر الآيات .

ومن الآيات الدالة على عجائب صنع الله عز وجل وقدرته وعظمته قوله سبحانه وتعالى ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** ﴾[٢] بالكواكب ﴿ **وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾ شقوق وصدوع ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا** ﴾ بسطناها ﴿ **وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ** ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾أى صنف حسن كريم ﴿ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ** ﴾ أى تذكرة ﴿ **لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ راجع إلى الله تعالى ﴿ **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ** ﴾ أى بساتين ﴿ **وَحَبَّ الْحَصِيدِ** ﴾ أى وحب الزرع الذى من شأنه إن يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما ﴿ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ** ﴾ طوالا ﴿ **لَّهَا طَلْعٌ** ﴾ أى ثمر يطلع ويظهر ويسمى طلعًا قبل أن يتشقق ﴿ **نَّضِيدٌ** ﴾ متراكب بعضه على بعض فى أكمامه فإذا تشقق وخرج من أكمامه فليس بنضيد وجعلنا ذلك ﴿ **رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ** ﴾ أى بالمطر ﴿ **بَلْدَةً مَّيْتًا** ﴾ فأنبتنا به الكلأ والعشب ﴿ **كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾ أي من القبور أحياءً بعد الموت .

وليتأمل الفطن إلى قوله أول الآية ﴿ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ وقوله ﴿ **رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ** ﴾ فتحتها إشارات تدل على بحور علم عظيمة فليفهم الذكى .

ثم شرعت[٣] فى ذكر معنى الآية وفصلت تفصيلا عجيبًا ، ومما قالت إن نبات الأرض يفهم من تنوعه أولو الألباب معانىَ ورموزاً ترتاح إليها أفئدة

---

(١) الآيات من ٧٤ - ٧٦ من سورة « الأنعام » . (٢) الآيات من ٦-١٠ من سورة « ق » .

(٣) أى (جمال) وانظر أول الكتاب عما رمز إليه جمال .

المتبصرين، وأما الجاهل فليس له منها إلا حظ الأتان من البرسيم أو الجائع من النسيم، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون فشاربون عليها سيحون وجيحون، ثم إنهم عن الفكر لمعزولون أولئك هم الجاهلون.

أقسم بنسيم الصبا والغصن إذا صبا والقطوف إذا تدلت والأطيار إذا تغنت ما لهؤلاء منها إلا حظوظ لفظية وآلام معنوية، وأمرض وأوهام، وصفع على الهام[١] وآراء ضعيفة وأفكار سخيفة، وذلك بخلاف العارفين وأولى اليقين فنفوسهم شريفة وآراؤهم ظريفة.

وأعجب من ذلك وأغرب كواكب السماء وشموسها فلقد بهرت ألباب العارفين، ألا ترى إلى سيدنا إبراهيم وما قص الله عنه في كتابه الحكيم وجعل له ثناء حسنًا باقيًا إلى آخر الدهر قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً** ﴾[٢] وهي لا تنفع ولا تضر ولا تغنى عنك شيئًا، وقد علمني الله علومًا لم تعلموها وآتاني الله ما لم يؤتكم فاتبعوني ﴿ **إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾[٣] بَيِّن ظاهر لمن عرف وإنما قرعهم بذلك لما كشف الله له عن ملكوت السموات والأرض، فأراه السموات حتى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب حتى رأى أسفل الأرضين كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾[٤].

ومن اطلع على عجائب هذا العالم شهد مبدعها عند كل عجيبة، ونظر جماله لدى كل غريبة، هكذا كان سيدنا إبراهيم نظر إلى الإبل والبقر والغنم، وعلم أنه لا بد لها من مدبر، والأجرام العلوية أبدع ما يرى وأجمل وأ بهى وأبهر فإن يكن

(١) والهامة: الرأس أو وسطه أو أعلاه.
(٢، ٣) الآية ٧٤ من سورة «الأنعام».
(٤) الآية ٧٥ من سورة «الأنعام».

في هذه العجائب المشاهدة ألوهية فليكن فيها ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا** ﴾(١) وهو الزُّهرة(٢) وكان ذلك آخر الشهر فلما علم انتقالها من مكانها وهو بلا شك إمارة الحدوث لا سيما وقد غابت عن الأبصار ﴿ **قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ** ﴾ فضلاً عن أن أتخذهم آلهة إذ لا تكون الألوهية إلا لمن يُحب وهذا لا أحبه لنقصه بالانتقال أولاً والمواراة بالحجاب ثانيًا، وهما إمارتا نقص وحدوث والناقص لا يكمل حبه فلا أتخذه إلهًا، وبينما هو يتفكر في نقص الزهرة وحدوثها ونزول درجتها عنده إذ طلع القمر ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا** ﴾(٣) وهو لا شك أبهى وأبهر وأجمل وأكثر ضوءًا ﴿ **قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ** ﴾(٤) من النجم والقمر ﴿ **فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾(٥).

وقد دلت هذه الآيات على توحيده سبحانه وتعالى ثم أردفها بعد ذلك في الآيات بالنبوة وقررها على أحسن وجه، ثم ذكر ما يدل على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى وأنه مبدع الأشياء وخالقها حيث قال :

* * *

(١) الآية ٧٦ من سورة «الأنعام».

(٢) الزُّهرة : أحد كواكب المجموعة الشمسية التسعة ثاني كوكب في البعد عن الشمس يقع بين عطارد والأرض وهو ألمع جرم سماوي باستثناء الشمس والقمر.

(٣) الآية ٧٧ من سورة «الأنعام».

(٤) الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة «الأنعام».

(٥) الآيتان ٧٨، ٧٩ من سورة «الأنعام».

الفصل الخامس

(فى تفسير آية إن الله فالق الحب والنوى إلى آخر الآيات)

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ ﴾(١) وهو ما ليس له نوى كالحنطة والشعير والارز وما أشبه ذلك ﴿ وَالنَّوَىٰ ﴾ جمع نواة ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك، ومعنى فالق الحب والنوى أنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ثم مرّ على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك و تعالى من تلك الحبة ورقًا أخضر، ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب، ويظهر من النواة شجرة صاعدة فى الهواء وعروق ضاربة في الأرض فسبحان من أخرج الأشجار النامية والمزارع الخضرة من النوى والحب ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾(٢) كالفرخ من البيضة والإنسان من النطفة ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾(٣) كالبيضة من الفرخة والنطفة من الإنسان، وهذه إشارة إلى أنه قاهر لملكه لا يحكم عليه ناموس.

واعلم أن صور الممكنات فى هذه المسألة أربعة: إخراج الحى من الميت وهذا تقدم، وإخراجه من الحى كالنخلة من النخلة، وإخراج الميت من الحى كما تقدم، وإخراج الميت من الميت كالضوء من الشمس وغيرها، وكإخراج الجبال من الأرض.

فنص على صورتى الاختلاف لغرابتهما، وإن كانت جميع أفعاله غرائب، ولكن العامة مولعون بما ظهرت غرابته لهم.

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ﴾ يعنى ذلك الصانع لهذه الأشياء الله ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أى فكيف تُصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذى هو خالق الأشياء.

وكما أنه عز وجل فالق الحب والنوى فالق ظلام الليل عن الصباح فهو كإخراج الحى من الميت فلذلك قال ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾(٤)

(١، ٢، ٣) الآية ٩٥ من سورة «الأنعام».

(٤) الآية ٩٦ من سورة «الأنعام».

يسكن فيه كل ذى روح للراحة ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أى قدر حركتهما فى الفلك بحسبان معين ﴿ ذَلِكَ ﴾ المتقدم جميعه من العلويات والسفليات ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[١] آدم ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أى مستقر فى القبر بعد الموت ومستودع فى الدنيا ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[٢] يدققون النظر ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى كل شىء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ أى النبات ﴿ خَضِرًا ﴾ أى شيئًا غضًّا أخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ أى حاصلة من طلع النخل أى كيزانه المسماة بالكفر ﴿ قِنْوَانٌ ﴾ جمع قنو ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ متدلية ثم عطف على قوله نبات كل شىء قوله ﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى بساتين من أعناب ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾[٣] والمعنى والزيتون متشابهًا وغير متشابه والرمان كذلك يعنى بعضه متشابه وبعضه غير متشابه فى القدر واللون والطعم، ثم أمر الله بنظر الاعتبار والاستدلال فقال ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾[٤] أى نضجه وإدراكه وأنه كيف خلق هذا الثمر فى أول أمره ضعيفًا لا ينتفع به من تلك الشجرة التى لا تصلح للأكل ثم بعد ذلك أنضجه وصيره غذاءً.

---

(١) الآيتان ٩٦، ٩٧ من سورة «الأنعام».
(٢) الآية ٩٨ من سورة «الأنعام».
(٣) الآية ٩٩ من سورة «الأنعام».
(٤) الآية ٩٩ من سورة «الأنعام».

وبعد أن فرغتْ من هذه الآية شرعت فى ذكر معناها بشرح طويل منها قولها إن الله عدد نعم الليل وأنه جعله سكنًا ونعم الشمس والقمر وكونهما بحسبان والنجوم والاهتداء بها فى الظلمات برًا وبحرًا، وبديع صنعه فى خلقنا، فمنا من هو فى عالم البرزخ، ومنا من هو على ظهر الأرض.

ثم ذكر بعض النعم على هؤلاء الذين على ظهر الأرض وهى إنزال الماء من السماء وإخراج النبات ليتغذى به الحيوان والإنسان بأن يخرج منه حبًا متراكبًا بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير والقمح والأرز والذرة.

ولم يكتف بذلك، بل أخرج لنا فواكه كالنخيل الذى تطلع منه قنوان متدلية، وأخرج لنا بساتين من الأعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه، ومثلهما فى التشابه وعدمه كل ثمر كثمر النخل والعنب فإنها مختلفة اختلافًا كثيرًا، فكما خلق عز وجل من الماء والتراب أنواعًا كثيرة من النبات مختلفة التراكيب والطعم واللون والرائحة والقدر والمنافع، خلق كذلك من النوع الواحد أصنافًا شتى ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[1]. وقال تعالى فى آية أخرى.

﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ** ﴾[2] بسطها فى رأى العين ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ** ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ **وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ﴾ انظر ما قدمنا فى الاستكشافات الحديثة ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** ﴾ أى يلبس النهار ظلمة الليل ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ فيعرفون أن لها صانعًا قادرًا قاهرًا ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ** ﴾[3] بقاع مختلفات مع

---

(١) الآية ١٤ من سورة «المؤمنون». (٢، ٣) الآيتان ٢، ٣ من سورة «الرعد».

كونها متجاورة متلاصقة ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ ﴾ الصنوان جمع صنو وهى النخلات يجتمعن من أصل واحد ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ أى فى الطعم ما بين الحلو والمر والحامض ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قالت قد ذكر العلماء أن فى القرآن خمسمائة آية فيها تفصيل هذه العجائب لم تدعْ شيئًا من هذه المخلوقات إلا صرحت به أو أشارت إليه .

قال إبراهيم أسمعينى من سورة الرحمن فقالت الفتاة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ أى جنسه ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ النطق والفهم والإفهام حتى عرف ما يقوله وما يقال له ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ يجريان ﴿ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ النجم ما ليس له ساق من النبات كالبقول والشجر ما له ساق، والسجود الانقياد لما يراد منها ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ قيل هو العدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أى لئلا تطغوا فى الميزان وقيل أن هذه مفسرة ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أى قوموا وزنكم بالعدل ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[١] أى لا تنقصوه أمر تعالى بالتسوية ونهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذى هو نقصان، ولقد رأيت لحجة الإسلام الغزالى كلامًا حسنًا فى الميزان فأحببت أن أذكره قال : (الميزان) ما تعرف به حقائق الأشياء ويميز به صحيح العقيدة من فاسدها وهو الواسطة بين السماء والأرض حيث قال ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ

(١) الآيات من ١-٩ من سورة « الرحمن » .

* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾(١) وذلك الميزان سر من أسرار الربوبية لا يعرفه إلا الراسخون فى العلم(٢).

* * *

(رياضات علمية وفكاهات أدبية من الحساب والجبر)
(والهندسة والفلك والطبيعة وهى عشرون سؤالاً)

ثم أحبَّا أن تمضى فترة من الزَّمن لا يذكران فيها إلا العلوم الرياضية.

فسألت فى خلالها الفتاةُ إبراهيم، وقالت قد رأيت فى كتب العلوم العربية أن فتاة من بنات العرب نظرت يومًا فرأت حمامًا وارداً ماءً قليلاً فقالت مسرعة: ليت هذا الحمام ليه ونصفه إلى حمامتيه تمَّ الحمام ميه.

وكان إذ ذاك صياد واقفًا فاصطاده جميعه فوجده عدد ٦٦ فأعجب بها العرب وقال شاعرهم لأحد الأمراء:

واحكمْ كحكمِ فتاة الحىَّ إذ نظرتْ
إلى حمام شراع وارد الثَّمدْ(٣)
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا
إلى حمامتنا ونصفه فقدْ
عدوا الحمامَ فألفوه كما نظرتْ
ستًّا وستين لم تنقصْ ولم تزدْ

---

(١) الآيات من ٧–١٠ من سورة «الرحمن».

(٢) قال مؤلف هذا الكتاب وقد وضعت كتاب ميزان الجواهر. لهذا المعنى على طاقتى وملاحظة الزمن ا.هـ اطلبه مشورا مع هذا الكتاب.

(٣) الماء القليل النازل من أطراف الجبال.

فأخبرني كيف نعرف حل مثلها :

فقال لها نعم وأمسك الطباشير وكتب على التختة

$$س + \frac{س}{٢} + ١ = ١٠٠$$

$$٢ س + س + ٢ = ٢٠٠$$

$$٣س = ١٩٨$$

س = ٦٦ وهو المطلوب[١]

فقالت ما معنى هذا؟

فقال إن الفتاة نظرت الحمام فقالت ليت هذا الحمام عندى ونصفه عليه مع الحمامة التى عندى ولم يكن عندها سوى حمامة واحدة يكون مائة، فالحمام ٦٦ ونصفه ٣٣ وحمامتها واحدة يكون تمام المائة .

فقالت لست عن هذا أسأل وإنما هذه مسألة بسيطة فكيف أطلت فى هذه الرموز .

فقال قواعد العلم تقتضيها وثمرتها تظهر فى أُمور أرقى من هذه فقالت إذن اسأل .

فقال نعم فقالت جاءت لى فتاة من صاحباتى وقالت إن أبى وأخى الأكبر وأخى الأصغر اشتركوا فى جواد وثمنه مائة جنيه فكان ما مع أخى الأصغر إذا أضيف إليه نصف ما مع أخى الأكبر يكون تمام الثمن وهكذا، إذا أخذ ما مع أخى الأكبر وثلث ما مع أبى يتم الثمن وإذا أخذ ما مع أبى وربع ما مع أخى الأصغر يتم الثمن فما عرفت ما مع كل واحد منهم .

فأمسك الطباشير وكتب على التختة نرمز لهم س و ص و ع

---

(١) مسألة من علم الجبر والذى اخترعه العرب .

س + ص/٢ = ١٠٠
ص + ع/٣ = ١٠٠
ع + س/٤ = ١٠٠

٢س + ص = ٢٠٠ ← ص = ٢٠٠ − ٢س
٣ص + ع = ٣٠٠ (١)
٤ ع + س = ٤٠٠ (٢)

(١) ٣ (٢٠٠ − ٢س) + ع = ٣٠٠

(٢) ٤ ع + س = ٤٠٠

(١) ٦٠٠ − ٦ س + ع = ٣٠٠

(٢) س = ٤٠٠ − ٤ ع

٦٠٠ − ٦ (٤٠٠ − ٤ع) + ع = ٣٠٠ (١) (٢)

٦٠٠ − ٢٤٠٠ + ٢٥ ع = ٣٠٠ (١) (٢)

٣٠٠ − ٢٤٠٠ + ٢٥ ع = ٠

٢٥ع = ٢١٠٠

ع = ٢١٠٠/٢٥ = ٨٤

ع = ٨٤

س = ٦٤

ص = ٧٢ فيكون ما مع الأب ٨٤ وما مع الاخ الأكبر ٧٢ والأصغر ٦٤ فأخذت القلم وكتبت على الورقة

٦٤ + ٣٦ = ١٠٠

٧٢ + ٢٨ = ١٠٠

٨٤ + ١٦ = ١٠٠

فقال ماذا تصنعين فقالت امتحنت هذا الحساب فصح؛ ولكن أريد أن

تفيدنى عن هذه الرموز فقال إن هذا علم الجبر فينبغى تعليمه، وأوقاتنا هذه أوقات فكاهات لا ينبغى فيها شرح العلوم .

فقالت إن علم الجبر فن جميل قد اشتاقت نفسى إليه .

فقال هذه المسألة أسهل مسألة .

فقالت إن عندى مسائل كثيرة فإن أحببت أن تجعل الجواب على قدر السؤال فلك الفضل .

فقال هات .

(٣) فقالت عندنا فى المكتبة ثلاثة أنواع من الكتب شرعية وحكمية وأدبية، والشرعية ضعف الحكمية والحكمية ضعف الأدبية، وجميع الكتب ٢٦٦ فكم عدد كل .

فقال الشرعية ١٥٢ والحكمية ٧٦ والأدبية ٣٨ .

(٤) فقالت أخى الأصغر فى المدرسة وسئل عن عمره فقال إذا أضيف عدد ٢٥ إلى ٣ أمثال عمرى وإذا طرح ٢٥ من (٨) أمثال عمرى ينتج عددان متساويان، فكم عمره .

فقال ١٠ فقالت نعم هكذا فى ورقة الميلاد .

(٥) فقالت عندنا ٥٠٠ جنيه أراد والدى تقسيمها بين إخوتى الأربعة بحيث إذا أضيف نصيب الأول إلى الثانى كان مجموعهما ٢٨٠ جنيها وإلى الثالث يكون مجموعهما ٢٦٠ جنيهًا وإلى الرابع يكون مجموعهما ٢٢٠ جنيهًا، فكم يأخذه كل واحد .

فقال يأخذ الأول ١٣٠ جنيهًا والثانى ١٥٠ جنيهًا والثالث ١٣٠ جنيهًا والرابع ٩٠ جنيهًا والمجموع ٥٠٠ جنيه .

فقالت ما ألذَّ علم الحساب والجبر.

(٦) ثم قالت ما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى ٣ والثانى فى ٤ يكون مجموع الحاصلين ٣٤، وإذا ضرب الأول فى ٧ والثانى فى ٣ يكون الفرق بين الحاصلين ١٤ .

فقال العددان ٥ و ٧ فقالت نعم ٥×٣+٤×٧=٤٣ و ٧×٥= ٣٥ إذا طرح منه ٢١ يكون ١٤ فقد صح الحساب.

(٧) ثم قال لها كم سنك فسكتت برهة ثم قالت نصف مجموع عُمْرَىْ أختى الصغرى والكبرى.

فقال وما عمرهما.

فقالت كان عمر أختى الكبرى منذ سبع سنين مضت ٤ أمثال عمر أختى الصغرى وبعد ٧ سنين تمضى فى المستقبل يصير عمر الكبرى ضعف عمر الصغرى.

فقال إذن عمر أختك الكبرى ٣٥ سنة والصغرى ١٤ سنة وسنك ٢٤,٥ سنة.

فقالت نعم هكذا فى ورقة الميلاد.

فقال لعل لك علما بالجبر فسكتت فعلم أنها تريد اختباره فقط وتتجاهل.

(٨) ثم قالت أنا وأختاى الكبرى والصغرى وضعنا مبالغ فى تجارة، وبعد سنة صار مجموع المبالغ بالأرباح أربعمائة جنيه وبتوزيع هذا المبلغ علينا أخذت أنا قدر أختى الصغرى مرتين وزيادة عشرين جنيهًا، وأخذت أُختى الكبرى بقدر ما أخذنا معًا، فقال أخذت الكبرى ٢٠٠ جنيه، وأنت ١٤٠ جنيه والصغرى ٦٠ جنيه وهذه مسألة بسيطة جدًّا حسابها يسير.

(٩) فقالت كيف تقسم عدد ٥٢٥ إلى قسمين لو قسم أكبرهما على ٢٥ وأصغرهما على ٣٠ يكون مجموع الخارجين يساوى ٢٠ .

فقال : نعم الأكبر ٣٧٥ والأصغر ١٥٠ ، لأن ٣٧٥ على ٢٥ = ١٥و ١٥٠ على ٣٠ = ٥ والمجموع = ٢٠ .

(١٠) فقالت المسافة بين محطتين ٥١٢ كيلو متراً وقام من إحداهما قطر فى الساعة ١١ أفرنكى قبل الظهر قاصداً الثانية وهو يقطع ٤٠ كيلو متراً فى الساعة الواحدة، ثم قام من المحطة الثانية قطر آخر فى الساعة الأولى بعد الظهر قاصداً الأولى وهو يقطع ٣٢ كيلو متراً فى الساعة الواحدة، والمقصود معرفة ساعة تلاقيهما وبُعْد نقطة التلاقى عن كلتا المحطتين.

فقال يتلقيان بعد ٦ ساعات ونقطة التلاقى تبعد عن المحطة الأولى ٣٢٠ كيلو متراً وعن الثانية ٢٩١ كيلو متراً .

فقالت أرجوك توضيح الجواب .

فقال ٢١٥ – ٨٠ اعنى ٤٣٢ = ٤٠ س + ٣٢ س و س هى رمز للزمن و ٧٢ س = ٤٣٢ فيكون س = $\frac{٤٣٢}{٧٢}$ = ٦ وهو زمن التلاقى بالساعات وبضرب ٦ فى ٣٢ يحصل ١٩٢ هى ما قطعه الوابور الثانى و ٦×٤٠= ٢٤٠ ويزاد ٨٠ فيكون ما قطعه الوابور الأول ٣٢٠ اهـ.

ثم سألها قائلاً .

(١) ما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار .

(٢) وما مقدار نصف قطر الأرض بالأمتار أيضًا .

(٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية فى مصر فى الثانية الواحدة، وما مقدارها فى خط الاستواء وما مقدارها فى باريس عاصمة فرنسا .

(٤) وقال العلماء إن دوران الأرض كلما زادت سرعته نقص ثقل الأجسام عليها على حسب السرعة، فكم سرعة مثل الحالية تحتاج لها الأرض حتى يعدم الوزن فى خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين .

(٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوى .

(٦) وما مقدار ارتفاعه بالأمتار .

(٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة .

(٨) فى أى درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة وأقصر ليل معدوم بالمرة، فيكون الشروق مع الغروب .

فقالت الفتاة عندئذ عجبًا للقدرة الباهرة والصنع العجيب .

(٩) ما مقدار حجم الشمس وما مقدار نصف قطرها .

(١٠) وما مسافة بعدها عنا، وما مقدار سرعة الضوء فى الثانية الواحدة، فهذه عشرة أسئلة .

فشرعت الفتاة تجيبه فقالت :

(١) أما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء فهو ٤٠٠٧٦٦٣٠ مترًا .

(٢) ومقدار نصف قطر الأرض ٦٣٦٦١٩٨ مترًا .

(٣) ومقدار سرعة الحركة الأرضية فى خط الاستواء ٤٦٥ مترًا فى الثانية وفى مصر ٤١٩ وفى باريس ٣٠٥ أمتار .

(٤) إذا صارت سرعة الأرض قدر أصلها ١٧ مرة ينعدم الوزن فى خط الاستواء تمامًا، فما أقدره سبحانه على هذا الحساب العجيب الذى به دبر الأرض فدارت على هذا الوضع الذى حفظت به الموازين وغيرها، ولو أسرعت عن هذا لما بقى عليها سكان البتة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾[١] ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾[٢] .

(١) الآية ٤١ من سورة « فاطر » .
(٢) الآية ٦١ من سورة « النحل » .

فقال لها أظنك فهمت أن الأرض تخرب بهذه الطريقة .

فقالت لا ، ولكنى أظن .

فقال إن قيام الساعة وخراب العالم أمر مغيبٌ عنا ولكل قوم فيه رأى ، والحق عند الله (وراجع ميزان الجواهر تجد الموضوع مستوفى[١]) .

(٥) ثقل الهواء على الارض يعادل ثقل ١٠ أمتار و ٣٣٤ مليمترًا من الماء ، وهذا عام فى جميع سطح الكرة الأرضية ، فكأننا فى بحر من الماء يبلغ ماؤه فوقنا ما ذكر ، فالإنسان كسمك فى قاع بحر يرتفع الماء فوقه بهذا المقدار أعنى زيادة عن ١٠ أمتار ، ولو كان بدل هذا الهواء زئبق لكان ٧٦ سنتيمترًا أعنى نحو $\frac{٣}{٤}$ المتر فكانت الناس تخوض فيه خوضًا ولا يغطيهم ، فسبحان الحكيم فى صنعه الذى خلق كل شىء فقدره تقديرًا وقد حسب هذا الثقل فوجد أنه ٥,٢٦٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ تقريبًا وهذا بالطونلاتة[٢] (والطولانتة عبارة عن ألف كيلو جرام وهى ٢٢ قنطارا و ٢٢ رطلا و ٣٢ درهما) أعنى ٥ كترليون و٢٦٣ ترليونًا تقريبًا[٣] ، ولو كان نحاسًا لكان عبارة عن ٥٨٥ ألفًا كلها مكعبات من النحاس ضلع المكعب الواحد ألف متر .

فما أجمل العلم الذى به عرفنا مقدار الهواء نحاسًا وماء وزئبقًا ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** ﴾[٤] .

ولله الهندسة والحساب والفلك والجبر فقد أظهرت لنا محاسن هذه الحكم البديعة العجيبة ، وبهذه النواميس جرى هذا الكون كله فى الفضاء ، والمجموعة الشمسية فى الكون والنجوم فى مداراتها والطيور فى هوائها ، والحيتان فى بحارها ،

---

(١) يصدر مع هذا الكتاب –إن شاء الله– .

(٢) يقصد الطن الذى يوزن به الآن .

(٣) قيمات عددية .

(٤) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة « الرعد » .

وهكذا السفن ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾[٢].

(٦) ارتفاع الهواء بالأمتار ٤٨,٠٠٠ مترًا على حساب العلامة بيوت وهذا المقدار تقريبًا $\frac{١}{١٣٠}$ من نصف قطر الأرض ٤٨,٠٠٠ أعنى أن الأرض لو أدخل فيها محور من حديد وزج به حتى خرج من الجهة الأخرى فإن ارتفاع الهواء فوقها يكون قدر جزء من ٦٥ من هذا المحور.

(٧) الزئبق أثقل من الهواء بمقدار ١٠٤٦٠ مرة، أعنى أننا إذا ملأنا زجاجة من الزئبق فثقله يعادل ثقل الهواء الذى فى عشرة آلاف وأربعمائة وستين زجاجة قدر تلك الزجاجة ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[٣].

ومن العجيب أن فى النوع الإنسانى من بلغوا فى اللطافة والكثافة فى الأخلاق والأفهام إلى هذه النسبة، فكم بين أعظم الأنبياء وأصغر الجهلاء.

وتأمل قوله عليه الصلاة والسلام لو وزن إيمان أبى بكر بالإمة لرجحها[٤] ولعمرى انها لنسبة متفاوتة جدًا ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٥] فإن التفضيل فى المعنويات أوسع جدًا من التفضيل فى المحسوسات ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[٦] أى فى الدنيا ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ

---

(١) الآية ٧ من سورة « النحل ».
(٢) الآيات ٣١-٣٣ من سورة « لقمان ».
(٣) الآية ٦٨ من سورة « القصص ».
(٤) وهذا دليل لمن قال : إن الإيمان يزيد وينقص.
(٥) الآية ٩ من سورة « الزمر ».
(٦) الآية ٢١ من سورة « الإسراء ».

دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[١] فإن هذا عالم الكثافة فدرجاته محصورة وذاك عالم ألطف وأرق وأجمل فدرجاته أوسع وأكبر.

فيا عجبًا لهذه الحكم الباهرة الخفية الظاهرة خفية على قوم لا يعقلون، وظاهرة لأولى الألباب ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً** ﴾[٢] العوالم إما كثائف وإما لطائف وإما متوسطة بينهما، فالكثائف هى التى رأيت التفضيل فيها كالزئبق والهواء، والمتوسط كالظلمات والنور ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾[٣] هذه هى الكثائف ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾[٤] هذه هى المتوسطة.

وأما اللطائف فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين.

والدرجات فى الكثائف ما رأيت، وفى المتوسطة ما ترى من اختلاف أنواع الأنوار إلى حد يفوق التصور فى القلة والكثرة، من ضوء مصباح ضعيف إلى ضوء الشمس، وبينهما درجات لا تتناهى، وهى أوسع من درجات الكثائف، وألطف وأرق وأبهج.

واختلاف درجات الناس فى عقولهم وأميالهم أوسع من اختلاف الأضواء والأنوار والظلمات، حتى قال الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل: «إن كل فرد من النوع الإنسانى يكاد يكون نوعًا مستقلا».

وكما صعب علينا تصوره أبرزه المحيط بالعالم فى قالب ضرب الأمثال فقال

(١) الآية ٢١ من سورة «الإسراء».

(٢) الآية ١٩١ من سورة «آل عمران».

(٣، ٤) الآية الأولى من سورة «الأنعام».

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾(١) وسمى خاتم الأنبياء شمسًا رمزًا لما علمته ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

وللبعد العظيم بين أفراد الإنسان فى عالم الأخلاق والعلوم ورد قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(٣) قال ابن عباس بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض، وهذا من ضرب الأمثال، وتعبير المعقول بالمحسوس، وما أرق تعبير ابن عباس وما ألطفه، فتأمل كيف ذكر المسافة فى تقدير هذه الدرجات المذكورة بعد التفسح وتوسيع مجلس النبى صلى الله عليه وسلم أو القيام وأنه بالتواضع تكون رفعة الدرجات، وبضدها تتميز الأشياء ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾(٤) فالمتواضع الذى من أخلاقه توسيع المجالس والإحسان فى المعاملة يرفعه علمه، والمتكبر يعيش بليداً ويموت قليل العلم لضيق نفسه وتكبرها .

(٨) يكون أطول نهار ٢٤ ساعة فى الدائرة القطبية التى فى درجة ٦٦ر٣٣ دقيقة من درجات العرض فى الشمال والجنوب، وحينئذ ينعدم الليل بالكلية .

(٩) حجم الشمس قدر حجم الأرض ١٫٢٨٠٫٠٠٠ ونصف قطرها ٦٩٢٠٠٠ كيلو متراً .

---

(١) الآية ١٦ من سورة « الرعد » .
(٢) الآية ٣٥ من سورة « النور » .
(٣) الآية ١١ من سورة « المجادلة » .
(٤) الآية ١٤٦ من سورة « الأعراف » .

(١٠) أما بعدها عنا فقد نظرته فى كتاب الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان تأليف محمد بك فريد وجدى، فينبغى لك الاطلاع عليه لتعرف حكم الكون العجيبة فقال بعدها عنا ٣٧ مليونًا من الفراسخ، والضوء يقطع فى الثانية الواحدة ٧٥ ألف فرسخ، ثم قال : إن ضوء الشمس حين يشرق منها لا يصل لنا إلا بعد ٨ دقائق و ١٨ ثانية فلله الحكمة البالغة .

فما أعظم هذه البدائع وما أجمل العلوم، وما أبهجها وما ألذها، وما يعقلها إلا العالمون .

﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾(١) ومن لم يحركه العود وأوتاره، والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج، يحتاج إلى العلاج، ومن لم يحرك قلبه هذا الجمال ولم يَصْبُ(٢) إلى هذا الكمال، وهو فى هذه الدنيا فلا لذة له، بل هو كحمار يدور فى رحاه ﴿ **أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾(٣) اللهم افتح بصائرنا لنرى جمال هذه المبدعات الجميلة، ونتأمل هذه المحاسن الرائقة واللطائف والرقائق .

على نفسه فليبْكِ من ضاع عمرُه

وليسَ له فيها نصيبٌ ولا سهم

حَسُنَ صُنعك يا مبدع هذا الكون، ولعمرى إن بهجة العلماء الحكماء ولذتهم وشكرهم لخالقهم إنما يكون بالاطلاع على تلك المحاسن الباهرة العجيبة التى لا تتناهى، وبدونها لا ثمرة لحياة العالم ولا بهجة له .

قال سيدنا الإمام الشافعى رضى الله عنه : لولا ساعة قبيل الفجر ما أحببت الحياة، وذلك لأنه فيها تظهر له عجائب هذه الحِكم إثر العبادة .

---

(١) الآية ١٠١ من سورة « يونس » .

(٢) أى مال إليه وأحبه .

(٣) الآية ١٧٩ من سورة « الأعراف » .

وكان الإمام النووى رضى الله عنه يبيت ساهرًا فى التأليف والتصنيف ويقول فى آخر الليل :

إذا كـان هـذا الدمعُ يجـرى صبـابةً

على غيرِ ليلى فهو دَمْعٌ مُضَيَّعُ

ولعمرى إن هؤلاء العلماء هم الذين عرفوا كيف تكون الحياة، والعلماء الناظرون فى الكون من هذه الوجهة العالية هم أقرب إلى الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم وسواهم كالمقدمات لهم، وبينهم درجات متفاوتة، ألا ترى أن الله تعالى يقول ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[١] بعد ذكره إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به وذكر اختلاف الألوان فى جميع الأشياء وذلك فى سورة فاطر .

ثم قالت إن هذا الجمال فى الكون يقوم دليلاً على الله ووحدانيته .

فقال وكيف ذلك ؟

فقالت ما رأينا جميلاً إلا وهناك أرقى منه، كما أنه فوق كل ذى علم عليم، فإن قلنا الحُسن فى أوربا فقد ظهر أن فاطمة التونسية حازت وسام الحسن والشرف فى معرض باريس، وكانت النظرة لها بعشر فرنكات كما ذكره أستاذنا العلامة الشيخ حمزة فتح الله فى بعض مؤلفاته، ثم لعل هناك ما هو أجمل وأحسن وأبهى، فالليالى حبالى يلدن كل عجيبة .

فأجمل كل جميل هو الله وحده، كما أنه أعلم كل عليم، وكما أنه أحسب كل حاسب، وهو أسرع الحاسبين .

فالجمال من مميزات مبدع هذا الجمال، فلم نجد أحدًا فى العالم ذكر أن أجمل المخلوقات فلان إلا بنسبة تقريبية، وغاية ما فى قول عشاق يوسف ﴿ **مَا هَذَا**

---

(١) الآية ٢٨ من سورة « فاطر » .

بَشَراً إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[١] إنهن شبهنه بالملائكة فى جمالهم، وقد قطعن أيديهن، فما بالك لو رأين الملائكة الذين ألحقن يوسف بهم من باب التشبيه البليغ المحصور[٢] وإذا حار عشاق الجمال وتاهوا فيمن هو الأرقى ولكل شىء نهاية فإذن إلى ربك المنتهى .

* * *

«معجزات القرآن وعجائبه فى المستكشفات الحديثة»

ولما أجابت الفتاة جمال على ما تقدم من المسائل الحسابية الفلكية الطبيعية أعجب إبراهيم ما أدمجت فيها من الحكم الكونية واللطائف العلمية، فأثنى عليها، وقال لها : لقد أعجبنى ما سمعت من إعجابك بالقرآن والسنة، والعلوم العقلية والفلسفية، ومطابقتك بينها مطابقة تسر المسامع، وتقر الأعين، وتشرح الصدور، وإنى ليسرنى أن تذكرى ما تعلمينه من معجزات القرآن المكتشفة حديثًا فى العلوم الجديدة، فإن الحق أنه يتجدد إعجازه إلى آخر الزمان[٣] وإذا كانت المدنية كلها الآن ترقت، فأين حظ القرآن منها، ولا جرم أن تجدد الإعجاز من لوازم قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٤] .

فقالت الفتاة :

إن القرآن والسنة يتجدد إعجازهما كلما تمادى الزمن والذى أعلمه من ذلك :

---

(١) الآية ٣١ من سورة « يوسف » .

(٢) حصره بالنفى (ما) و (إلا) والتشبيه البليغ ما حذف فيه وجه الشبه والأداة كما تقول أبو يوسف أبو حنيفة والأصل أبو يوسف كأبى حنيفة فى العلم .

(٣) ولذلك لا يفسر التفسير الشامل المظهر عجائبه حتى آخر الزمان وكل تفسير هو اجتهاد مفسره والعلم عند الله تعالى .

(٤) الآية ٩ من سورة « الحجر » .

(١) قوله تعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[١] بعد قوله تعالى ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[٢] إذ لم يقل ويخلق ما لا تعلمون فى القرآن كله إلا بعد ذكر ما يركب فى هذه الآية وحدها، إشارة إلى ما سيحدثه فى المستقبل من مدهشات ما يركب ويسير بالوسائل من البخار والكهرباء والسفن الحربية والبالون والتلغراف بلا سلك أو به[٣] وكل هذه إما حاملة رسالة أو وقرًا[٤] وهى تختص بالدواب عادة، وقال أيضًا ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾[٥].

(٢) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾[٦] وقد سكن الظل بواسطة الفوتغرافية (آخذة الصور).

(٣) المواربة فى ذكر ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٧] بعد ذكر الشمس والقمر والأرض وجعلها بعد الشمس والقمر، وذلك لإجماع الأمم على حركتهما، وأما الأرض فذكرت قبلهما إيناسًا لمن يعتقد سكونها لوجود الفصل بالشمس والقمر ولمن يعتقد دورانها بدخولها فى يسبحون.

(٤) ذكر السفن فى قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[٨] بعد الكواكب والأرض، إشارة إلى أن الجميع من واد واحد، فالسفن فى البحر كالشمس والقمر والأرض فى الأثير[٩] وهى المادة المالئة للفضاء

(١، ٢) الآية ٨ من سورة « النحل ».

(٣) أى بالسلك مثل الهاتف « التليفون ».

(٤) أى ثقلا.

(٥) الآيتان ٤١، ٤٢ من سورة « يس ».

(٦) الآية ٤٥ من سورة « الفرقان ».

(٧) الآية ٣٣ من سورة « الأنبياء ».

(٨) الآية ٤١ من سورة « يس ».

(٩) الأثير فى علم الفيزيقا وسط افتراضى يعم الكون ويتخلل جميع أجزائه وضع لتعليل انتقال الضوء فى الفراغ — وله تعريف آخر عند الكيماويين سائل عضوى لا لون له يذيب المواد العضوية ويستخدم فى الطب.

وكأن الكواكب كلها والأرض سفن في بحر الأثير ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾(١) .

(٥) ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾(٢) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾(٣) إشارة إلى ما قيل إن القمر انفصل من الأرض فنقصت وانشق هو منها .

(٦) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾(٤) قالوا إن الشمس والأرض كانتا شيئًا واحدًا فانفصلتا .

(٧) مادة العالم الأثير وهو مالىء للكون لم يعرف إلا بالعقل لدقته عن الحواس ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾(٥) .

(٨) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(٦) اكتشف أن حواس الإنسان وأعضاءه كلها تراب صار نباتًا وحيوانًا ودخل في الجسم فصار هو نفس الإنسان .

(٩) ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٧) قد اكتشف أن جسم الإنسان يتجدد في كل مدة نحو شهر فتذهب مادته ويؤتى بدلها بالمواد النباتية والحيوانية والمعدنية فتصير بشرًا سويًّا منتشرًا ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(٨) .

---

(١) الآية ١١ من سورة « فصلت » .
(٢) الآية الأولى من سورة « القمر » .
(٣) الآية ٤١ من سورة « الرعد » .
(٤) الآية ٣٠ من سورة « الأنبياء » .
(٥) الآية ١١ من سورة « فصلت » .
(٦) الآية ٢٠ من سورة « الروم » .
(٧) الآية ١٥ من سورة « ق » .
(٨) الآية ٢٠ من سورة « الروم » .

(١٠) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾[١] قد اكتشف أن الخنزير منشأ الدودة الوحيدة[٢].

(١١) كراهة أكل لحم بعض البقر لأنه منشأ السل.

(١٢) وجوب غسل أثر الكلب سبعًا فقد اكتشف أنه سم، ومثله الهر[٣] كما فى بعض أحاديث الجامع الصغير.

(١٣) المستنقعات منشأ المكروبات القتالة للإنسان وقوله عليه الصلاة والسلام لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ولا يغتسل فيه، فبالأول يزيد ضرره، وبالثانى يصيب المغتسل الضرر بالمكروب.

(١٤) ورد فى السنة أن الطاعون من وخز الجن، وقد ظهر أنه حقًا من الحيوانات المكروبية التى هى قسم من أقسام الجن فى الحديث الذى فى كتابنا ميزان الجواهر، نقلاً عن الإحياء[٤] حيث قال فيه: وصنف كالهواء.

(١٥) الأمر بكثرة الاغتسال والوضوء وهذا أعظم داع لعدم الدعاوى وامتلاء السجون كما قاله العلامة بنتام الإنجليزى مشرعهم الشهير، الذى درس علوم الأمم كلها، وقال: من واظب على أغسال الدين الإسلامى لم يصدر منه ذنب ولا جريمة، فالنظافة من محاسنه، كما استحسن أيضًا منع الخمر منعًا باتًا فى جميع

---

(١) الآية ٣ من سورة «المائدة».

(٢) قال المؤلف: وفى الخنزير ديدان لا تؤثر فيها الحرارة فى درجة من درجاتها ولقد أخبرنى حضرة أستاذنا العلامة الشيخ حمزة فتح الله عن دولة الغازى مختار باشا، أن جماعة ماتوا بعد أن أكلوا فبحث الأطباء عن سبب موتهم فإذا هم أكلوا لحم الخنزير فأماتهم ميكروباته.

وهو بلا مين من هذه القاعدة وفى مقدمة ميزان الجواهر فوائد فى هذا أيضًا.

وأنا أعرف الكثير من المسيحيين لا يقربونه لما يعلمون من مضاره (المحقق).

(٣) وقد ثبت حديثا أن مخالطتها تصيب بالكثير وبالذات للفتيات.

(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

الكرة الأرضية، وعده من محاسن هذا الدين وإليه الإشارة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[١] .

(١٦) ظهور الازدواج فى جميع النبات ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[٢] ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٣] .

(١٧) ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[٤] قد علم مما قدمناه أن الريح هى الملقحة لأكثر النبات .

(١٨) ظهور الجدرى فى أصحاب الفيل بالمكروب الذى دل عليه قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾[٥] أى متتابعة مجتمعة ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾[٦] أى من الطين الذى يتماسك على سطح المستنقعات .

(١٩) ظهر أن كل شيء له مقدار محدد بالتحليل الكيماوى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[٧] .

(٢٠) ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٨] .

معلوم مما قدمنا فى المجالس السابقة والمذكرات أن علماء الهيئة[٩] قسمان

---

(١) الآية ٢٢٢ من سورة « البقرة » .
(٢) الآية ٣ من سورة « الرعد » .
(٣) الآية ٧ من سورة « ق » .
(٤) الآية ٢٢ من سورة « الحجر » .
(٥) الآية ٣ من سورة « الفيل » .
(٦) الآية ٤ من سورة « الفيل » .
(٧) الآية ٨ من سورة « الرعد » .
(٨) الآيتان ٨٧، ٨٨ من سورة النمل .
(٩) أى علماء الفلك .

المتقدمون وهم يوافقون ما يظهر للنظر العام من ثبوت الأرض ودوران الشمس والمتأخرون وتخالف هيئتهم ما يعرفه العامة فيحكمون بدوران الأرض حول الشمس وهذا المقام قد أوضحناه سابقًا بما لا مزيد عليه وقدمنا أن هذه كلها دائرة على الظن[١] وإن رأينا أن الثانى أقرب إلى الظن من الأول، وأن القرآن لم ينزل لتحقيق مثل هذه المسائل، لأنه جاء لما هو أجل من هذا، إذ هذه الاشياء أقرب شبهًا إلى الصنائع، وقلنا إن إشكالها على نوع الإنسان دعا إلى نموّ الأفكار، فهو المقصود إذ هو فى عالم التربية.

ثم نقول الآن العجب كل العجب من وضع الآية التى نحن بصددها وضعًا متقنًا على حسب ما قدمناه، وبيانه أن قوله ﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ إلى قوله ﴿ **دَاخِرِينَ** ﴾ أى صاغرين مسوقة ليوم القيامة ثم قوله بعدها ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ﴾[٢] حملها العلماء على يوم القيامة ﴿ **وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً** ﴾[٣] ولشدة عظمتها ترى كأنها واقفة، ولا ريب أن هذا التفسير يناسب من علقت فى ذهنه الهيئة القديمة من أيام نقل الفلسفة اليونانية إلى الآن، فناسب ما قبل الآية وصدرها أول الأمة.

وإذا نظر إلى قوله بعدها صنع الله الذى أتقن كل شيء، نجد أن خراب الأرض ينافى الإتقان، وإنما الإتقان يناسب سير الأرض وجبالها، ثم يراها الإنسان مع شدة حركتها ساكنة لا تتحرك[٤]، فهذا هو الإتقان العجيب.

---

(١) «تنبيه» يعلم إخوانى أن بعض ما ذكر فى هذه المحاورة على سبيل الاحتمال أو المجاراة، فمن وجد شيئًا غير محتمل فلا يظننى أحتمه، وليحمله على أنى أجوزه فقط، لا أنه مذهب لى، فمن طعن بعد ذلك فليس له عذر (المؤلف).

(٢) الآية ٨٧ من سورة «النمل».

(٣) الآية ٤٧ من سورة «الكهف».

(٤) كما ترى المروحة الكهربية سريعة الدوران.

وإنما لم يقل وترى الأرض لأنها على هذا الرأى لا ترى إلا متحركة مع خروج الإنسان بالمرة عنها، وهذا مستحيل فى الدنيا، أما الجبال فرؤيتها ممكنة .

ثم انظر كيف تسير الأرض بتلك الحركة العجيبة حول نفسها وحول الشمس ونحن نراها ساكنة لم يحس أحد بحركتها من آدم إلى الآن، فهذا هو الإتقان، وهذه هى الحكمة، وهذا هو الوضع العجيب الذى جمع بين الحركة والسكون، ففيه تنبيه على أن العالم كله فى حركة مستمرة، مع أنه يرى فى سكون، بل الإنسان يرى ساكنًا مع أنه لا يقف فكره لحظة لا فى اليقظة ولا فى المنام، إذ قوته المخيلة لا تقف حركتها لحظة ولا تقف إلا بالموت، وهكذا الأمة فى حركة مستمرة إما إلى صعود وإما إلى هبوط وإما إلى استمرار، فالصعود باختراع الجديد، والهبوط بهدم سور المدنية الحقة، والاستمرار فى الأمور الدنيوية على ما عودهم الآباء بلا فكر جديد، فالعالم كالعالم وكالإنسان والأمة كل فى حركة مستمرة ويرى فى الظاهر كأنه ساكن دائم السكون، ولم نذكر هذا على أنه تفسير للآية ولكن لمناسبة العالم بعضه بعضًا،وإنما نحن فى ذكر الجبال وأنها على الأرض، وترى أنها ساكنة مع أنها على الهيئة الجديدة سائرة دائمًا معها، وهذا هو غاية الإتقان ويحق لنا أن نقول ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾[١] بعد ما ذكر هذا ما خطر ببالى الآن .

وإنى لأعجب جدًّا من هذا الوضع المتقن فى الآيات وكيف ناسب صدرها صدر هذه الأُمة وعجزها متأخريها أى العصريين المعاصرين للأوروباويين، فلم تصادم الآية مذهب السابقين وأشارت لمذهب المتأخرين[٢] .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة « النمل » .

(٢) فيكون ملخص المعنى سيقوم من فى السموات ومن فى الأرض فزعين إلا من شاء الله وهم جميعًا صاغرون، ولا ريب أن السموات والأرض أكبر ممن فيهما وإليه الرمز بقوله ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾ وإذا كانت السموات والأرض أطاعتا حتى قال فيهما ﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾ فكيف لا يأتيه كل من فيهما صاغرين أذلاء أو لا يرون أن الأرض التى هم عليها وما فوقها من الجبال منقادة له مسخرة فى هذه الحياة الدنيا لا يمكنها الاستقرار لحظة من الزمان، فترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب، فإذا كانت الأرض التى خلقها أعظم من خلقكم أتت فى الحياة الدنيا خاضعة له مع جبالها وأنتم عليها فكيف بكم أنتم وحدكم، فلا بد من إتيانكم صاغرين يوم القيامة (المؤلف) .

ولعمرى هذه هى الحكمة العجيبة جعل نظام كلامه كنظام ملكه، فما أتقن الفعل وما أحسن القول، سياستان متشابهتان، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هلى ترى من فطور.

وعندى أن هذا وأمثاله هو الإعجاز والحكم لا التأكيد بأن ولا الجناس والطباق[١] ولا غيرهما، ألا فليتق الله العلماء، وليبينوا للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون.

ومن عجيب الإتقان نفس هذه الآية فكفى بإتقانها وإحكامها برهانًا ساطعًا ومعجزة لمن درس العلوم، وذاق لذة المعارف، ولعمرى لا يعقل هذا إلا العالمون، فتأمل كيف ناسب مراعاة مذهب المتقدمين سابق الكلام ومذهب المتأخرين لاحقه، وكيف ثم كيف قال بعد أربع آيات فى آخر السورة ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾[٢].

(٢١) علم أن الأرض متزنة بالجبال ولولاها لاضطربت فى سيرها ﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾[٣].

(٢٢) قوله تعالى ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴾[٤] والحديث الذى رواه البخارى بسنده عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب ابنة جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يومًا فزعًا يقول لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتى تليها، قالت زينب ابنة جحش فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث[٥]. ا.هـ

(١) الجناس فى قسم البديع من علوم البلاغة اتفاق الكلمتين فى كل الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى مثل قوله تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يحسب المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ فالساعة الأولى هى القيامة والثانية هى الساعة الزمنية، والطباق الجمع بين معنيين متقابلين مثل (يحيى ويميت).

(٢) الآية ٩٣ من سورة « النمل » (٣) الآية ١٥ من سورة « النحل ». (٤) الآية ٩٦ من سورة « الأنبياء ».

(٥) ومن معانى الخبث الزنى عياذا بالله منه.

فقد اتسعت حلقة فتح الردم بعده عليه الصلاة والسلام، وكان ما كان مما ذكر مفصلاً فى كتابنا المقالات الجوهرية .

فقال إبراهيم إن هذا المقام يستحق التوضيح ولا يكفيه الإجمال فإنى رأيت كثيراً من العقلاء وأهل الدين يحجمون عن التكلم فيه .

فقالت إن هذه المسألة أعظم معجزة ومجلسنا هذا لا يسع ذكر ما علمناه من تعيين زمان خروجهم وفتح السد مصداقًا لهذا الحديث، وجغرافية بلادهم وحدودها وتاريخهم وصفاتهم وما ذكره المؤرخون فيهم من العرب والإفرنج ومكاتبات الملوك فى شأنهم، وآراء كبراء العلماء، وظهور معجزات للنبوة أثناء الكلام فيهم، وحقيقة كون أولهم بالشام وآخرهم بخراستان وكونهم لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس، وهذان واردان فى الحديث أيضًا، وكالحديث الوارد فى رئيسهم، كل هذا أظهره الاستكشاف وكمعنى قوله تعالى ﴿ **مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴾[١] وكيف ظهر فى الخارج وكيف اقترب الوعد الحق وما هذه الدعوى التى يهرف بها الجهلة من العجز والكسل بسبب ظنهم قرب الساعة وقيامها عليهم، وهل يفندها القرآن أو هم بفهمه جاهلون، فهذه خمسة عشر سؤالاً لا يمكن إيضاحها الآن فإن أردت استيفاءها فعليك بالمقالات الجوهرية[٢] .

(٢٣) قوله تعالى ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ** ﴾[٣] .

---

(١) الآية ٩٦ من سورة « الأنبياء » .

(٢) يقول المؤلف : هو كتاب لنا سيطبع إن شاء الله قريبًا وهذا الموضوع مستوفى فيه وقد ظهر فيه ولله الحمد ما كان خافيًا أحقابًا طويلة فى هذه المسألة واتضحت فيه معجزات للنبوة لم تعلم إلا به، وأول من فتح لنا هذا الباب أستاذنا العلامة الشيخ حمزة فتح الله وهو يلقى علينا الدرس بمدرسة دار العلوم، ونبهنا لهذا الحديث، وقد كتبت مقالة أدرجت فى مجلة الهلال جواب سؤال وارد من أحد أدباء الهند عن هؤلاء الأمم وأين هم مع ذكرهم فى الكتب السماوية ا.هـ

(٣) الآية ٨٢ من سورة « المائدة » .

ومعلوم فى الأصول[١] أن الذين اسم عام لا يخص من نزلت الآية بسببهم، وظهر فى كل زمان، لا سيما هذا الزمان أن كثيراً منهم يدخلون بسرعة فى الإسلام بخلاف اليهود بإجماع فلاسفة الأمتين، وفى أمريكا العجب العجاب وكذلك فى أوروبا وسيأتى الزمان المستقبل بأعجب من هذا فى الإعجاز، وقال تعالى لعيسى ﴿ **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾[٢] الآية.

(٢٤) تشتتت اليهود فى أقطار العالم وعذبهم الفرنساويون فى الجزائر وغيرها وطردهم الروس وهم مبغضون فى كل دولة[٣] ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** ﴾[٤].

(٢٥) ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[٥].

قد أجمع علماء اليونان والعرب وأروبا أن علم النفس إنما يكون بعد الرياضيات والطبيعيات، وهاك آخر ما وصل إليه البحث إلى وقتنا هذا من ترتيب العلوم بحيث إن المتأخر لا يفهم إلا بعد المتقدم (١) العلوم الرياضية (٢) العلوم الفلكية (٣) العلوم الطبيعية (٤) علم الكيميا (٥) علم وظائف الأعضاء (٦) علم النفس والمنطق (٧) علم الاقتصاد السياسى (٨) علم تكوين الشعوب (٩) علم تمييز الجمال (١٠) علم ما وراء الطبيعة[٦] ويدخله العقائد ومعرفة الخالق والروح.

---

(١) يقصد أصول الفقه.

(٢) الآية ٥٥ من سورة «آل عمران».

(٣) وإذا كان من يدعون المسيحية يوالونهم فإن مسيحيتهم مسيحية سياسية لا دينية ووعد ربك آت لا ريب فيه.

(٤) الآية ١٦٧ من سورة «الأعراف». (٥) الآية ٨٥ من سورة «الإسراء».

(٦) ويسميه الأقدمون الميتافيزيقا وهو عند المسلمين علم الإلهيات أو علم التوحيد.

وأما علم النفس فإنما هو ظواهرها لا حقيقتها .

(١١) علم الأخلاق (١٢) علم الحقوق (١٣) العلوم السياسية .

فأنت أيها الأخ ترى من هذا الجدول أن علم الروح فى المرتبة العاشرة مع العلم الإلهى المعبر عنه بما وراء الطبيعة أو الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى ، والمخاطب بهذا هم يهود جزيرة العرب ، ولا ريب أنهم أبعد الناس عن هذه العلوم فلا يمكنهم فهم الرياضيات العليا فضلا عن الروح فلذلك قال ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[١] أى ولا يفهم الروح إلا من درس علومًا كثيرة وما أعجب قوله من أمر ربى ، إذ علم الروح وعلم الألوهية فى الدرجة العاشرة .

(٢٦) قال عليه الصلاة والسلام صنفان من أمتى فى النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات[٢] الخ ، فقد ظهرت تلك السياط بعد النبوة بأزمان وهو الكرباج[٣] .

(٢٧) ورد أن الذباب فيه داءٌ وقد ظهر هذا بالاستكشاف[٤] .

(٢٨) قال تعالى ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[٥] قد قارن علماء أوربا بين النساء المتعلمات وبينهن حين لم يتعلمن فاستنتجوا أن المرأة كلما قدمها التعليم لتلحق الرجل أخرتها الحكمة الإلهية فى القوة والإدراك والجسم فصارت على الثلث منه فى مجموع قواها فكلما قدمهن التعليم أخرتهن الحكمة على مقدار ذلك لتبقى درجة الزيادة محفوظة بين

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(٢) أى لابسات ثيابا إما ضيقة تصف ما تحتها وإما خفيفة تشف عما تحتها .

(٣) وظهرت النسوة اللابسات إياهن إما ملابس تشف عما تحتها أو تصفه وهى اللابسة وكانها عارية .

(٤) وقرأت أن فى أحد جناحيه دواء كما قال الحديث الشريف .

(٥) الآية ٢٢٨ من سورة « البقرة » .

الرجال والنساء وإلا لاختل النظام بتساوى الدرجتين ولذلك قال بعدها « والله عزيز » أى غالب « حكيم » فيما صنع . اقرأ المرأة المسلمة لصديقنا الفاضل محمد أفندى فريد وجدى فقد ذكر هذا، وأنه قامت قيامة فلاسفتهم الآن ينذرون قومهم الخطر.

(٢٩) إن الفونجراف[١] داخل فى عموم ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾[٢].

(٣٠) قوله تعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾[٣].

أما آيات الآفاق فهى جميع ما استكشف فى العلوم الجديدة فى الأرض والسماء بعد أن كانت منحصرة فى كواكب معدودة من السيارات وهى ٧ مع جهل الثوابت وعناصر محدودة مع اكتشاف الكواكب السيارة، وعرف كثير من الثوابت، وهكذا العناصر بعد أن كانت ٤ وصلت الآن إلى نحو ٧٠ .

وأما آيات الأنفس فإن للإنسان جسمًا وروحًا، أما الجسم فأظهرته أشعة رنتجن التى هى عبارة عن أضواء شرر الكهرباء المنحصرة فى آلات تسلط على الجسم فتكشف الأعضاء من الداخل، وتظهر الدورة الدموية من وراء الجلد واللحم والقلب والعروق كأن هذا أجسام شفافة لا تحجب ما وراءها مما يدهش العقل ويحار فيه فكر اللبيب مصداقًا لقوله فى هذه الآية « وفى أنفسهم » .

ومعلوم أن فى للظرفية[٤] أى الآيات المظروفة فى نفوس النوع البشرى والمراد بها هنا ما يشمل الجسم .

---

(١) آلة لها اسطوانات كانت موجودة أيامنا فى ثلاثينيات القرن العشرين يسجل عليها الأغانى فتذيعها والآن (الراديو والتليفزيون) وآلات تسجيل الأصوات وإذاعتها .

(٢) الآية ٢١ من سورة « فصلت »

(٣) الآية ٥٣ من سورة « فصلت » .

(٤) كما تقول : الماء فى الكوب فإن الكوب ظرف للماء والماء مظروف فيه .

وأما الروح فقد ظهرت عجائبها بالتنويم المغناطيسى الذى تناقلته الإفرنج عن الهنود .

فلما سمع إبراهيم ما قالت الفتاة أعجبه بداهتها وحسن فهمها، ولكنه لاحظ أن بعض هذه التفاسير جاء على سبيل الاحتمال أو المجاراة .

فسألها عن ذلك فقالت نعم .

ثم قال لها يا سيدتى عفواً عنى فيما كلفتك به من النصب والتعب فى هذه الأسئلة، فإنى كثير الشغف جداً بالنظر فى هذين الأمرين وهما هذا الكون المؤلَّف من العناصر وهذه المعانى المؤداة بالحروف التى بها نسمع القرآن الكريم وغيره من الكتب .

ومن شدة ولوعى بالغرائب أحنُّ كثيراً وأطرب للملاءمة بينهما واتفاقهما وسيرهما بسنن واحد، لعلمى أن الإنسان بهذا الشوق يصل إلى الحكمة العالية والعلوم الغريبة ولا يزال يترقى ما كرَّ الجديدان وما تعاقب الملوان(١) .

فقالت أحب أن أسمع منك مقالاً شافيًا فى عجائب العناصر والحروف فقال :

الكون عبارة عن وضع عجيب وترتيب حكيم أدهشنا صنعه وبهرنا وضعه، وعجبنا كل العجب من إتقانه وحسن بنيانه، نجوم لامعة وشموس ساطعة وبدور طالعة، وسماء واسعة، وهواء وسحاب، ونبات وماء، أتدرين كيف كان أصله؟ أصله مادة أثيرية لا تُرى ولا تحس ولا تشم ولا تذاق ولا تلمس، عرفها فحول العلماء المتأخرين مع إشارة المتقدمين فتكونت وتطورت بتداول السنين وكرورها ومرورها ملايين وبلايين، فانظرى أيتها الفتاة ما ترين فيها من جمال وبهاء وحسن وحكم بالغة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾(٢) .

(١) هما الليل والنهار .

(٢) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

ويا للعجب كيف انقسمت إلى أشكال متباينة، وصور متعددة، وأحوال متباينة.

ثم سكت برهة وظهر عليه أثر العجب، ففطنت الفتاة إلى أن العجب أدهشه، فانتظرت رجوعه للكلام ولم تنطق ببنت شفة.

ثم قال لقد أخذني الآن الدهش والبهر[١] من النظر فى هذه الكائنات.

وإذا كان أصلها هذا الجسم البسيط وهو الأثير الذى أشير إليه بقوله ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾[٢] إشارة إلى أن هذه المادة وهى الأثير تنوعت وتطورت وتشكلت بصور مختلفة حتى وصلت إلى سموات وأرض وماء ونبات وحيوان وإنسان وأجسام مظلمة وأخرى مضيئة وعالم لطيف وآخر كثيف.

فلو نظرنا إلى الأغذية والملابس كالقمح والقطن لرأينا المواد الداخلة فى كليهما واحدة، ولكن العجب كل العجب فى أن اختلاف المقادير فى تلك العناصر كالجير والبوتاسا والسليكا جعل هذا غذاءً وهذا ملبسًا، وما أحسن العلم وما ألذ الفهم الذى أرانا أن ملابسنا وأغذيتنا من عناصر واحدة اختلفت مقاديرها فاختلفت المنافع.

والأغرب من هذا أنها جارية على نظام محدود وقسطاس مستقيم، وفى الأرض نحو مائتى ألف نبات كلها تجتذب إليها العناصر من الأرض وباختلاف

(١) تتابع النفس من الإعياء.
(٢) الآيتان ١١، ١٢ من سورة «فصلت»

المقادير اختلفت الطعوم والروائح والالوان والمقادير والأشكال والأغذية والملابس والأدوية ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾(١) .

فلننظر ما الذى أنتجت هذه العوالم من الحسن والجمال، وما منتهاها من الحسن والإحسان رأينا منتهاها الإنسان فكان تركيبه أجمل تركيب ووضعه أحسن الأوضاع، يا عجبًا له خلق النفَس الخارج والداخل من الرئتين ليصلح الجسم بإدخال النافع وإخراج الضار، وكان هذا الوضع جامعًا لجميع تلك الأوضاع فى المواد من العلويات والسفليات، ولما خفى ذلك على العامة وكثير من الخاصة فتراهم يقولون كيف يتصور أن يكون وضع الإنسان وتركيبه ومحاسنه أتقن وأجمل من جميع هذا العالم وهؤلاء معذورون لضعف أفهامهم فجعل له الصوت المنوع بالحروف فعبر عما فى ضميره من العلوم والمعارف، بل عن جميع ما فى العالم من الصور والأشكال والمعانى واللطائف والرقائق والمحاسن، فيا ليت شعرى كيف يعبر هذا الصوت الواحد عن جميع هذه الأشكال، ويتنوع كما تنوعت وهو واحد، ولكن لا عجب فى ذلك فإنه ناتج عن حكمة بالغة وقدرة وعلم، ولقد حكى صوت الإنسان المادة الأثيرية وأشبهها، ألا ترين رعاك الله وَأفهمك الحكمة أن المادة الأثيرية تنوعت إلى عناصر كثيرة كما ذكرناه فهكذا الصوت وهو واحد تنوع إلى حروف مختلفة بمروره بين آلات المضغ من الأسنان واللسان، وحوافظ الفم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾(٢) .

ويا للعجب ما للعقول منصرفة، وما للأبصار منحرفة، وما للأسماع لا تعى، أفمن هذا الحديث يعجب الجاهلون، ولا يتفكرون ولا ينظرون، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون، وما للعامة لا يتعلمون، وما للعلماء لا يفصحون، وما للناس ساهون لاهون، وما للشرقيين عن التذكرة معرضين، هذا الفم وآلاته خلق لإساغة

(١) الآية ٨٦ من سورة «الحجر».

(٢) الآية ١٣ من سورة «آل عمران».

الطعام فما لنا نراه يتصرف فى الهواء فجعل منه حروفًا كما فتت الغذاء وقطعه حتى ينزل إلى المعدة دقيقًا مثلا، فكان الفم يفصل الأجسام والمعانى والكثائف واللطائف، ويا ليت شعرى ما للأمة أعرضت عن هذه الحكم وازورّت(١).

ولنرجع إلى ما نحن فيه فنقول فالصوت الناشىء من الزفير فصل إلى حروف قد تكون ٢٩ حرفًا كاللغة العربية وقد تكون ٢٥ وأكثر وأقل، وكم نشأ من هذا الصوت الواحد حروف ولغات حتى قدرها بعضهم أربعة آلاف لغة على أن اللغات لا يمكن حصرها إذ يمكن إيجاد ما لا يتناهى منها على حسب اختلاف الأوضاع.

إنما المدهش المطرب العجيب الغريب أن الإنسان الذى هو نهاية الإبداع فى العناصر كيف عبر بهذا الصوت الواحد بآلاف من اللغات عن جميع ما فى العالم، وقدر على إيجادها فى الهواء اللطيف بتموجات لطيفة تدخل إلى الصماخين فتنقل هذا العالم كله من عقل إلى عقل، ورسولها الأمين هو الهواء اللطيف المتداخل فيه أشعة الكواكب المناسب كل المناسبة لعقولنا وأرواحنا العجيبة الغريبة ومن فهم هذا عرف قوله تعالى ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ** ﴾(٢) الذى هو نهاية الإبداع الذى عبر عن كل مبدع بهذا الصوت العجيب المتنوع كما تنوعت المادة الأصلية فلذلك أعقبه بقوله ﴿ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾(٣).

فمن جهل كيف كان منشأ العالم من العناصر فلينظر منشأ العلوم كلها من الصوت بتنوع حروفه، وإننى لفى عجب جدًا من هذه الحقائق ولا يسع المقام تفصيله، فكفى ما ذكرت الآن، وفى كتابنا المقالات الجوهرية ما هو أوسع من هذا وأرق وألطف فى هذا الموضوع.

---

(١) أى بعدت.

(٢) الآيات ١-٣ من سورة «الرحمن».

(٣) الآية ٤ من سورة «الرحمن».

فقالت الفتاة يفهم من هذا أنكم تفضلون الحروف على العناصرن، مع أن العناصر هى الأصل وكيف يفضل الفرع على الاصل فقال :

(وكم أب ٍ قد عَلا بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما عَلاَ برسولِ اللهِ عدنانُ)

ولا تؤاخذينى فى السكوت الآن فقد ذكرت فى كتاب المقالات الجوهرية حجج تفضيل أحدهما على الآخر، مما لم أعلم أنه سبق به كتاب، بل نفس هذا العنوان (عجائب العناصر والحروف) ما رأيته ولا سمعته فى غيره، ولقد فصلت الحجج هناك تفصيلا حسنًا من العقل ورموز القرآن المؤيدة له، فانظرى الموضوع هناك تجدى العجب العجاب .

* * *

الخاتمة

فى اجتماع الخليلين

ثم إن الفتاة لما أبدت العجب العجاب فى العلوم والمعارف انبهر إبراهيم من إفصاحها وسُرَّ من حسن إلقائها، وعرف أنها على علم عظيم فخطبها إعلانًا من أبيها، وجرى بينهما العقد فى مجلس حافل من العلماء والأعيان وأكابر أصبهان، وبنى بها(١) وتم الأنس لهما وأنشد :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحنُ روحان حَلَلْنا بَدَنَا

فإذا أبصرتنا أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

فحصل بينهما الاتحاد وامتزجا كالماءِ والراح(٢) والجسد والروح، فكأنهما غصنا بان ورضيعا لبان(٣) وسليلا وفاء وقد أنشد :

مرضى من مريضةِ الأجفان   عللانى بذكرها عللانى

هتفت الوُرقُ(٤) فى الرياض وناحتْ   شجو هذا الحمام مما شجانى

بأبى طفلة لعوبٌ تهادى   من بنات الخدورِ بين الغوانى

طلعت فى العيان شمسًا فلما   أفلت أشرقت بأفق جنانى

يا طلولا برامة دارسات   كم حوت من كواعب وحسان

بأبى ثم بى غزال ربيب   يرتعى بين أضلعى فى أمان

ما عليه من نارها فهو نور   هكذا النور مخمد النيران

يا خليلىّ عرجا بعنانى   لأرى رسم دارها بعيانى

---

(١) زفت عليه ودخل بها.

(٢) الراح : الخمر.

(٣) مأتلفان كالأخوين الراضعين من ثدى واحد .

(٤) الحمام.

فـإذا مـا بلغـتـمـا الدار حُطَّا   وبهـا صَـاحـبى فلـتـبكيـانِ

وقـفـا بى على الطلولِ قليـلا   نتـبـاكى أو أبك مما دهانى

الهـوى راشـقى بغـيـر سـهـام   الهـوى قـاتلى بغـيـر سنان

عـرفانـى إذا بكيت لديها   تسـعدانى على البكا تسـعدانى

واذكـرا لى حـديث هند ولبنى   وسليـمى وزينب وعنان

ثـم زِيدا من حـاجـر وزورد   خـبـرًا عن مـراتع الغـزلان

واندبانى بشـعـر قـيس ولبنى   وبمـى والمبـتلى غـيـلان

طـال شـوقى لطفلة ذات نثـر   ونظام ومنبـر وبيـان

من بنات الكبـار فى دار فـرس   فى جمـال البـلاد فى أصبهـان

هل رأيتم يا سادتى أو سمعتم   أن ضـدين قط يجتمعـان

لو ترانا يا صـاحـبى نتـعـاطى   أكـؤس الهـوى بغـيـر بنان

والهـوى بيننا يسـوق حـديثًا   طيـبًا مطربًا بغـيـر لسـان

لرأيتم ما يذهب العـقل فيـه   ابن مـصر والتـرك مجتمعـان

كـذب الشـاعـر الذى قـال قبلى   وبأحجـار عقله قد رمانى

أيهـا المنكح الثـريا سـهيـلاً   عمـرك الله كـيف يلتـقـيان

هى شامـيـة إذا مـا اسـتقلت   وسـهيل إذا اسـتقل يمانى(١)

وقد تم بحمد الله ما قصدته من كتاب جواهر العلوم وقد اتبعت فيه خطة الترقى من الأسهل إلى السهل وجعلته سلما إلى فهم ما هو أدق وأرقى فى الفكر، وهو ميزان الجواهر وجمعته مستقلاً على حدته(٢) وذكرت فيه بواطن العوالم وقواها

(١) هذه القصيدة من كلام الشيخ محيى الدين ابن عربى مع بعض تغيير يسير ا.هـ

(٢) ومن حسن الحظ انه طبع مع هذا كما أشرنا إليه فى هذا الكتاب ويصدر إن شاء الله مع هذا الكتاب.

وعجائبها الباطنة مع المقارنة، بين آراء الفلاسفة الأقدمين ومقابلته بكلام الفلاسفة الأوروبيين، ووزن أقوالهما بالحجج العقلية.

فهاك أيها الأخ فقد جمعت لك فى هذا الكتاب من دقائق الكون وبدائع العالم ولطائفه رغبة استجلائك نفائس عرائسه، فهاك جليسًا يناجيك فى خلواتك، ويزيدك جمالا كلما استجليت فيه النظر واعدت فيه كرة الفكر(١) فلم أعرج على القوانين العلمية العويصة بل جنيت الزهر من الأغصان والثمر من البستان، فمهما فرغت من حاجاتك فاجلس على أريكتك وحادثه تجده سميرًا لا يُمل حديثه، ونديمًا لا يَسأم جليسُه فضلا عن كونه مخ العبادة وأجلها، بل فتح باب هذا الفكر هو المقصود من حياتك ومطمح نظر الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء وقد قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

هدانى الله وإياك إلى طريق السعادة.

هذا وإنى أضرع إلى الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم وأن يسقينا شراب الأنس فى كأس الصفا مع أحبابه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ذلك الفضل من الله، وأن يعمم نشره فى ظل مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان وأميرنا المحبوب أفندينا عباس باشا حلمى الثانى(٢) أدام الله طلعته وأيد شوكته، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

تم بعون الله

* * *

---

(١) كما قال الشاعر:

يزيدك وجهه حسنا إذا مـــا زدته نظرا

(٢) إذ الكتاب طبع من أكثر من مائة عام فى حياة المذكورين حينما كانت مصر ولاية لتركية.

التقريظ

سبحان الله ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(١) وله الحمد : حمدًا يكافىء عظمته ونعمته؛ والشكر : شكرًا عامًّا وفق طاقة الشاكر، لأنه لا يكلف نفسًا إلا وُسعها، فإن الشكر له نعمة منه تحتاج لشكر، وإلهامه الشكر نعمة كذلك، وهذا لا يتناهى، وما قدروا الله حق قدره؛ وعلى نبيه محمد خير من أوتىَ الحكمة وفصل الخطاب وجوامع الكلم والنطق بالضاد : أتم صلاة وسلام، كما أنه أشرف نبى ورسول، جزاه الله عن أمته أفضل ما جازى به نبيًّا عن أمته، بشَّرَ وأنذر وهدى إلى سواء الصراط؛ وعلى آله وأصحابه الناشرين فى الآفاق آثاره .

أما بعد :- فيا جامع جواهر العلوم والآداب، ماذا عليك لو اتخذت سناء الشمس رداء، وتاج البدر حذاء؟ وماذا عليك لو دهشت النهى(٢) دفعة واحدة بما فى خزائن علمك من نفائس الجواهر، لكنما أنت حكيم، والحكيم يضع الشىء فى موضعه، ينجِّم العلوم، على حسب الأزمنة والفهوم .

وما تصنعُ بالسيف إذا لم تك قَتَّالا

هذه طريقة الله فى كتابه، وطريقة محمد فى أصحابه، هذه هى الطريقة المثلى، هذه هى الطريقة المؤثرة فى العالم، كأنما اتصل بك شعاع من شمس النبوة فأنت تنفذه إلى غيرك، تنفذه لتكون قد أديت واجبًا، تنفذه لتخرج من ربقة الكتمان، لا بل أنت تذيعه لتنفع، بل ليس فى إمكانك عدم الإذاعة، لأنك مفطور على أن يدبرك غيرك، شىء وضعه الله فى بعض عباده، أوَضَعه عبثًا؟ معاذ الله، وضعه لحكمة مرادة، فإن لم تدفعه دفعه، ولا يمنع من ذلك هبته لك نوع اختيار، وكفاك شرفًا رضاه بكونك مهبطًا لهذا الخير الجلل، كالبحر أو السيل يفيض فيستقى

---

(١) الآية ٢٦٩ من سورة « البقرة » .

(٢) أى العقول .

منه بلا كد، وسواك بعدون له الرشاء[١] والدلاء والراحلة[٢]، لو أن فى أمثالك ولو من يعد على الأصابع، لضارع حينك أحيانًا كان الشرف فيها لأرسطو وأضرابه، لكن أزعم أن لا يلبث زمانك قليلاً إلا وقد وجد فيه من يستضىء بنبراسك، ويهتدى بهديك، فيدب فيه روح الشعور والحركة، فينفع وتكمل المضارعة، فلا غرو إذا تلقيت كلماتك كما تلقَّى آدم الكلمات:

(حـــبــــذا هن من لبــــانة قلبى

وجــديد الشــبــاب من ســربالى)

صــدرت من عــارف يدرى مـا يقــول، من عــارف له قــدرة على البـيــان، انكشفت لى معانيها الكثيرة فى مبانيها القليلة، والقليل عزيز، فقلت كما قال الشاعر:

تســعـــــــةُ آلاف ألف ألف   خـــلالهـــا جـــوهرٌ خطيـــرُ

بجـــانب الكرْخِ عند قـــومٍ   أنت بمـــا عندهم خـــبـــيــــرُ

رأيتك تنتقل فيها بين معان مقصودة كشفت عنها الغطاء، وما أدراك ما الغطاء؟ هو السدُّ الذى نظيره فى آية ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾[٣] ألا أيهذا المستطلع كشف عنك غطاؤك فبصرك اليوم حديد، إن كنت فيما مضى ممن يقول بالكوكب والريح فقل اليوم:

آمنتُ باللهِ الذى يفـــعل الـ   أشـــيـــــاء لا الكوكبُ والريحُ

مـــا تملك الأنجمُ دفـــعًـــا ولا   نفـــعًـــا ولا ضـــــرًّا ولا الريحُ

أو كنت تنتظر من هو أغزر مادَّةً وأوسع بيانًا فرويدك[٤]:

---

(١) يقصد الحبال التى تربط بها الدلاء.
(٢) الإبل التى تحمل الماء.
(٣) الآية ٩ من سورة «يس».
(٤) أى تمهل.

(فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل)

خـذوا مـا أتـاكم بـه واغنمـوا فـإن الغنيـمـة فـى العـاجل

رأيت صاحب الكتاب فى أضرابه، فقلت كما قال الشاعر:

رأيتُ ابا النضـر فى مـذجَحٍ بمنزِلة الفـجـرِ حينَ اتـضح

ورأيت عباراته فقلت كقوله:

نطقت ابن عمـرو فسهلتَـها ولـم ينطقِ النـاسُ أمثـالَها

وكيف أُقيم الحجة عليه وقد قال الشاعر:

وليـس يصحّ فـى الأفـهـامِ شىءٌ

إذا احـتـاج النهـارُ إلى دليـلِ

فلك الثناء أيها المؤلف على ما أسديت من النعمة على الألباب، أربة ارتُقبت قليلاً ثم جاءت وأثرت:

آية مـا تكـن فـقـد يرجع الغـا ئبُ يومًـا ويوقـظُ الوسنانُ

تحريرًا فى يوم الثلاثاء ٩ من رجب الحرام سنة ١٣١٩

حسين والى

الشافعى الأزهرى

* * *

فهرست

صحيفة	الموضـــــوع